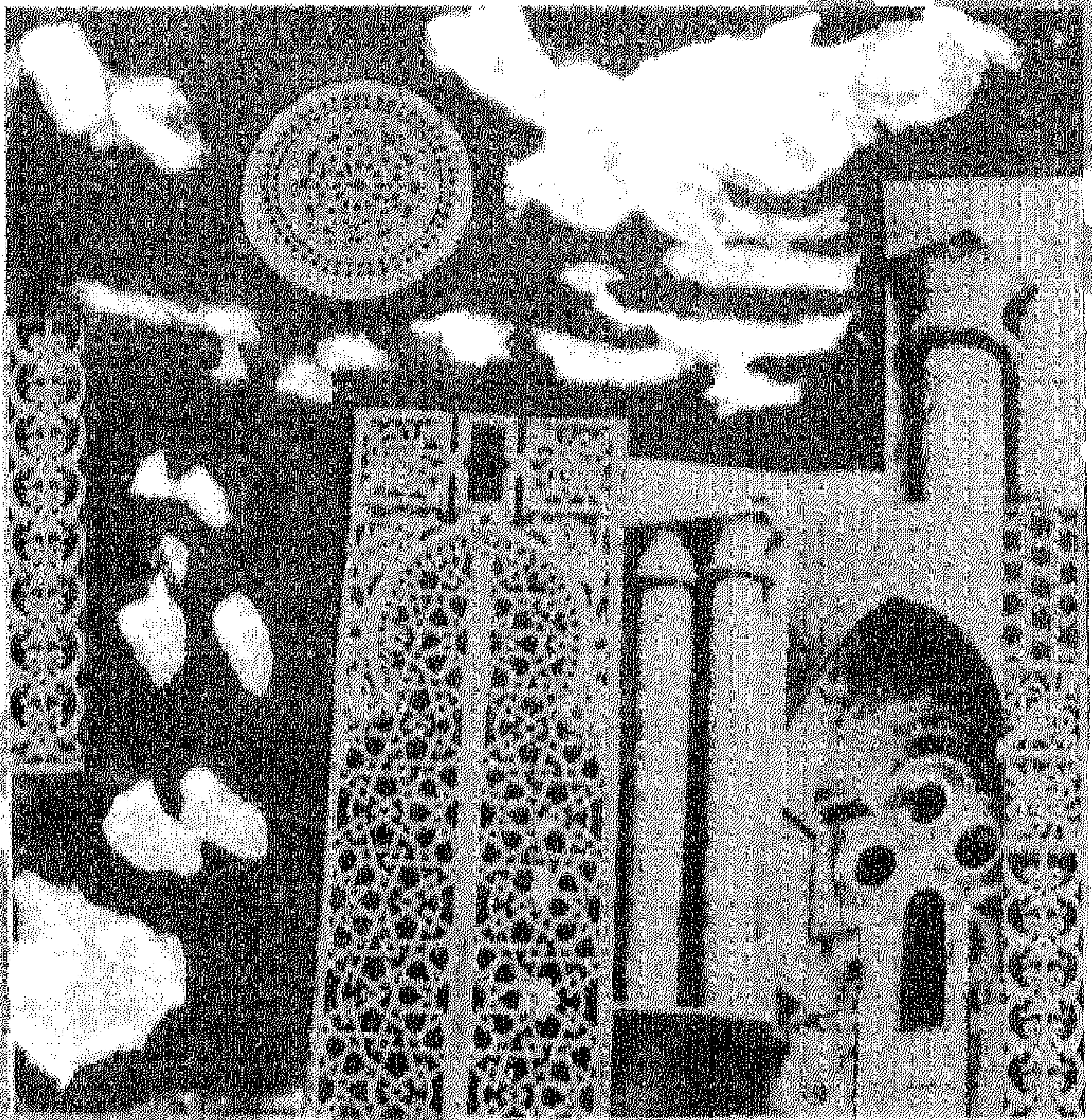
اقرأ

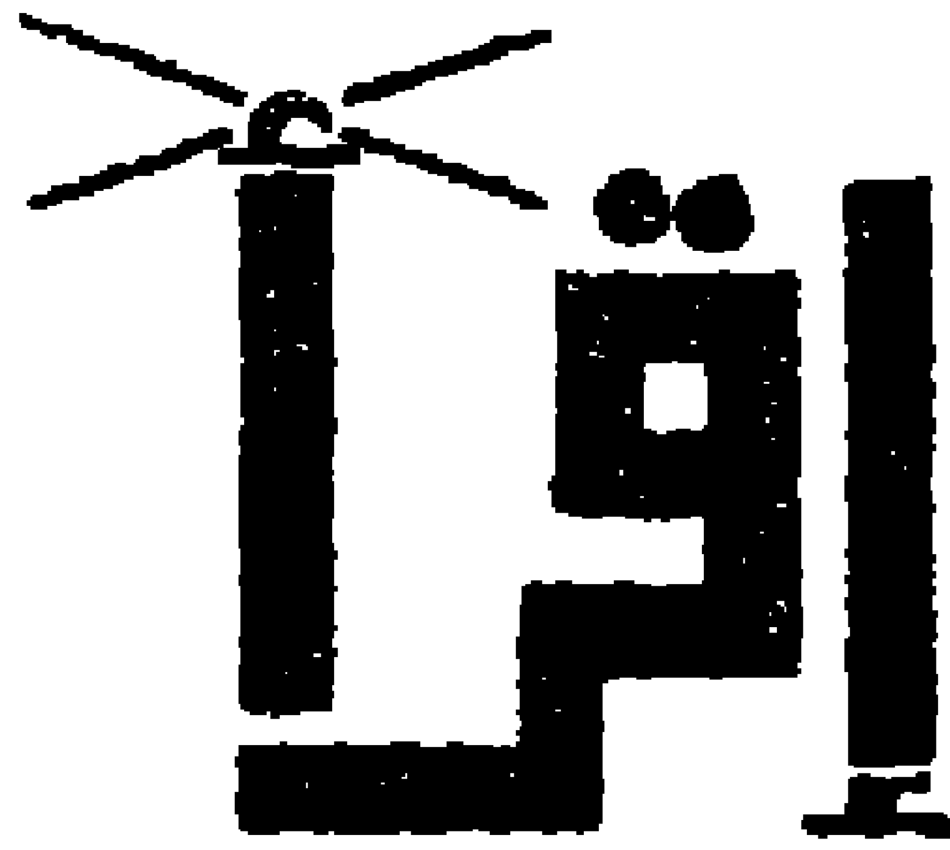
الرسول في رمضان



علي حسني الخربوطلي

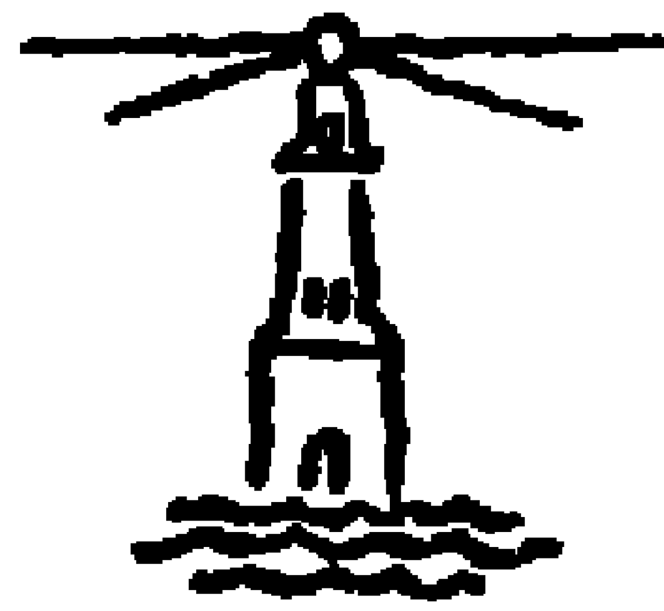
دار المعارف بمصر

عدد ممتاز



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



الدكتور علي حسني الخربوطلي

الرسول في رمضان

اقرأ ٣١٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٢ – ديسمبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى الحياة دائماً فاضل ومفضول ، فقد شاء الله عز وجل أن يخص بعض مخلوقاته بخصائص ومميزات ، جعلتها تفضل على غيرها . وكما أن يوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع ، فإن شهر رمضان هو أفضل شهور العام .

وشهر رمضان هو الشهر الذى أنزل الله سبحانه وتعالى فيه القرآن الكريم ، هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان . وهو الشهر الذى خصه المولى بصيام المسلمين . . وليلة القدر هى إحدى لياليه المباركة ، وقد وصفها الله بأنها خير من ألف شهر . وشهر رمضان هو شهر العبادة ، وشهر التوبة والإنابة ، وشهر التقرب والتحبب إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى .

كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم كلها خيراً وبركة ، حفلت بالأمجاد والمكرمات . وهذا الكتاب ، يسلط الأضواء على جانب من جوانب حياة الرسول المجيدة المباركة ، فيمدنا

بصور لحياة الرسول الكريم فى شهر رمضان المعظم .

شهد رمضان تحنث الرسول فى غار حراء ، ثم شهد مشرق الإسلام ، حيث انتشرت أنوار الهداية والحق فى أرجاء العالم ، تبدّد ظلمات الضلال والجهالة . وأكرم الله عز وجل شهر رمضان ، فأنزل فيه كتابه العزيز ، هدى ورحمة . كما خصّه المولى بركن من أركان الدين الحنيف ، وهو الصيام الذى يطهر النفس والبدن ، ويقرّب الإنسان من بارئه العظيم .

وكان شهر رمضان للرسول عليه الصلاة والسلام هو شهر الجهاد ، فقد شهد إنفاذ الرسول لبعض سراياه (سنة ١ هـ) ، ثم شهد غزوة بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) ، التى كانت أول انتصار للإسلام على الوثنية والجاهلية . واحتفلت المدينة فى شهر رمضان بأعياد النصر وسط مظاهر الحمد والابتهاج . وشهد رمضان أيضاً تعبئة المسلمين قواهم وحشد جيوشهم للقاء المشركين فى غزوتى أحد (٣ هـ) والخندق (٤ هـ) . ثم توّج المسلمون انتصارات رمضان بفتح مكة (سنة ٨ هـ) . وشهد رمضان التالى (سنة ٩ هـ) عودة الرسول منتصراً من غزوة تبوك ، وقدوم وفد الطائف إلى المدينة يعلن بيعة أهالى الطائف للرسول على الإسلام والطاعة ، فسقط بذلك آخر معقل للوثنية فى الجزيرة العربية .

٧

وهكذا شاء الله أن يكرّم رمضان إذ شهد انتصارات الرسول وأمجاد الإسلام .

وهذا الكتاب ، يعيش مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان من كل عام ، طوال حياته المباركة ، ويصوّر كفاحه وجهاده من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز الإسلام ، ويبرز ثمار النضال من انتصارات باهرة غيرت مجرى التاريخ . وأرجو أن يكون التوفيق قد حالفنى فى تقديم هذه الصورة المشرقة لشهر رمضان فى حياة الرسول ، والله عز وجل ولى التوفيق ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . .

المؤلف

الرسول فى غار حراء فى رمضان

الحنفاء :

أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة ، لتكون بيت الله الحرام ، ومركزاً لدين التوحيد . ثم أمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج كما جاء فى الآية الكريمة (وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

ثم أصابت النكسة العقيدة التى نادى بها إبراهيم الخليل قومه ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام ، وجهلوا سرّ الفداء ، وسرّ البقاء . وبدأ عصر الوثنية وتقديس الأصنام . وكان العرب يدركون أن هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوة ، ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية ، وجزءاً من اعاداتهم المتوارثة . واحتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة ، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية ، فقد كانت تجذب آلاف الحجاج فيحتملون مشقات السفر من أجل الحج . ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى، وتصبح مكة مركزاً تجاريًّا عالميًّا .

قبيل ظهور الإسلام ، فقدت الوثنية جوهرها وقوتها ،

وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام . وأصبح العرب فى حالة قلق دينى ، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، وأصبحوا فى خلافات دينية ، ويمارسون عبادة الأوثان بدون شعور بإيمان حقيقى[١] .

وظهر نفر من العرب نبذوا الوثنية وتطلعوا إلى عقيدة أسمى ، فروى ابن هشام[٢] « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لها عند صنم من أصنام ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .. قالوا : أجل ... فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ؟ يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم » .

تنازع بنو هاشم وبنو أمية ، بعد وفاة عبد المطلب ، السلطة السياسية والروحية فى مكة ، مما أدّى إلى تفريق صفوف

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية (من ترجمتنا) ص ٢٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧ .

قريش من جهة ، وإلى مزيد من حرية الناس فى التفكير والجهد بالرأى ، وإلى إقدام اليهود والنصارى ، ممن كانوا يخافون صاحب السلطان ، على تعيير العرب عبادة الأوثان . وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زال من نفوسهم تقديس الأصنام ، وإن ظل وجوه القوم بمكة يظهرون لها التقديس والعبادة[1] .

نادى بعض المستنيرين من العرب بالعودة إلى دين إبراهيم الحنيف ، وإلى نبذ الوثنية والخلاص من رذائل الجاهلية ، ودعوا إلى دين التوحيد ، واعتقدوا فى البعث والثواب والعقاب ، وأطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء . ونظروا إلى الحياة نظرة أكثر سموًّا، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التى كانت قد تشابكت مع حياة العرب ، ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم أسس المجتمع العربى الجاهلى ، وهذا ما نجح الإسلام فيما بعد فى تحقيقه ، إذ خلق مجتمعاً إسلامياً نقيًّا متجدداً .

وإن كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام ، فإنها

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ١/٢٥ .

قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة فى ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، وصحب ذلك ظهور بعض المشاعر الإنسانية صوّرها الشعراء فى القرن السادس الميلادى فى شعرهم .

تحنّث محمد :

اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى الله تعالى بالزهد والدعاء ، ويلتمسون عنده الخير والحكمة ، وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث .

درس ابن هشام[١] لفظى (التحنث) و (التحنف) ، فقال : « تقول العرب : التحنث والتحنف ، يريدون الحنفية ، فيبدلون الفاء من الثاء ، كما قالوا جدَث وجدَف ، يريدون القبر » . وفى الرد على ابن هشام قال أبو ذر : « . . . والجيد فيه أن يكون فيه التحنث هو الخروج من الحنث ، أى الإثم ، كما يكون التأثم ، الخروج عن الإثم ، لأن تفعل قد تستعمل فى الخروج من الشىء ، وفى الانسلاخ عنه ، ولا يحتاج فيه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥١ .

إلى الإبدال الذى ذكره ابن هشام »[١] .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبل البعثة النبوية ، يعمل فى التجارة ، ويشارك فى الحياة العربية ، ويقوم برحلات بعيدة مع القوافل . وكان مغرماً طوال حياته بالتأمل والبحث الدينى ، واستفاد من رحلاته الكثيرة ، كما كانت صحراء بلاد العرب الواسعة بما تحويه من مظاهر طبيعية مختلفة تدعو إلى التأمل ، والتفكير فى الخالق العظيم . ونبذ محمد دائماً عبادة الأوثان ، وبَعُدَ تماماً عن رذائل الجاهلية ، وكان يؤمن بوجود قوى روحية ، وأدرك أن الدين الحقيقى هو ما كان يقوم به آدم من عبادة خالقه ، وهو دين التوحيد الذى بشر به جدّه إبراهيم عليه السلام ، وهو عبادة الإله الواحد الحق ، خالق العالم .

آمن محمد ، قبل نزول الوحى ، أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية كبرى ، فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء ، وابتعد الناس عن الطريق القويم ، كما رأى أن تعود الكعبة إلى ما كانت عليه زمن جدّه إبراهيم . وكانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائماً وأثرت فى أعماله وأفعاله . فقد كان كثيراً ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه فى جبل حراء ، على بعد ثلاثة فراسخ

(١) انظر الحاشية فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥١ .

من مكة ، حيث يقضى عدّة أيام فى الصلاة والتعبد ، وكان يمضى شهر رمضان فى الغار ، وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح .

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الإصلاح ، ولكنهم تردّدوا فى انتزاع أول حجر من أسس الوثنية ، ولذا كانت جهودهم محدودة ، فلم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية التى كانت تنتقض من شأن العرب وأهميتهم فى ذلك العصر .

ولم يكن هناك غير محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ، ويشعر بالغيرة الدينية ، وكانت روحه العالية لا تقبل تعدّد الآلهة فى بلاد العرب ، وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات ، وأصبح محمد يفكر دائماً فى تحطيم هذا النظام القائم ، وقيام مجتمع نقى قوى سليم[1] .

كانت العناية الإلهية تحيط بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وتعدّه ليكون خاتم الرسل والأنبياء ، فيروى الطبرى[2] : « وكان

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أن يظهر له جبريل عليه السلام برسالة الله عز وجل فيما ذكر عنه ، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله ، فكان من ذلك ما قد ذكرت فيما مضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقا بطنه واستخرجا ما فيه من الغل والدنس وهو عند أمه من الرضاعة حليمة ، ومن ذلك أنه كان إذا مرّ فى طريق لا يمر فيما ذكر عنه بشجر ولا حجر فيه إلا سلم عليه » .

حينما كان محمد صلى الله عليه وسلم فى الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب فى الحقول مع أخيه فى الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً فى رفق على الأرض ، وشقّ أحدهما ، وهو جبريل عليه السلام ، صدره ، بدون أن يسببا له ألماً ، ثم نزعا قلبه وطهّراه من الحقد والشرّ الذى زُرع فى القلوب منذ عهد جدّنا آدم ، والذى كان يؤدى بالبشر إلى ارتكاب الآثام . ثم ملأ الملكان قلبه بالإيمان والمعرفة والنور ، ثم أعاداه إلى مكانه فى صدر الطفل العظيم .

روى ابن هشام[1] أن الرسول عليه الصلاة والسلام أجاب على بعض أصحابه ، وكانوا قد سألوه : يا رسول الله أخبرنا عن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥

نفسك . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا ، نرعى بهماً لنا ، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب مملوء ثلجاً ، ثم أخذاني ، فشقا بطني ، واستخرجا قلبي ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج ، حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم . ثم قال زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمة لوزنها » .

وقد سجّل القرآن الكريم هذا الحديث العظيم ، في قوله تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) .

محمد في غار حراء :

غرس الله تعالى في قلب محمد حبّ الوحدة ، فأصبح مشغوفاً

بفضاء الله الواسع يسبح فيه فريداً . وكانت روحه التي اصطفاها الله تجد متعة أسمى وأروع فى الهرب من الضلال الدينى والانحلال الخلقى اللذين سادا الجزيرة العربية آنذاك . فكان محمد يستسلم لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتتجه به نحو الوحدة والعبادة .

كانت الخلوة ، لمحمد ، أعظم مرب ، فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، ولذا أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » ، وتشربت روحه ، رويداً رويداً ، روح الصحراء ، فبصرته بعظمة الله اللانهائية . وفى الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته فى قوة ، حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من (كارلايل) ، المفكر الإنجليزى المشهور ، صيحة الإعجاب التى يقول فيها : « حقاً إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ، ومن الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر فيستمعوا إليها ، ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ، فكل ما عداها هباء إذا قورن بها »[1] .

اعتاد بعض الحنفاء والمؤمنين بالله تعالى أن يتحنثوا ويخلوا

---

(١) إتين دينيه : محمد رسول الله ص ٨٧ .

لأنفسهم . وكانت عبادة هؤلاء تشمل إطعام المساكين ممن يلجأون إلى الغار ، لأنه كان من نسك قريش فى الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين فى هذا المكان .

وكان لمحمد ، عليه الصلاة والسلام ، شغف بالوحدة منذ الصغر ، ولكن وحدته طفلاً وفتى ويافعاً وصبياً كانت وحدة الحزن والألم ، إذ وُلد ونشأ يتيما ، ولكن وحدته فى غار حراء بجبل أبى قبيس كانت من نوع آخر ، فقد كان ينشد المعرفة بطريق الإشراق ويستلهم ما فى الكون من أسبابها[١] .

وصف المؤرخ الطبرى[٢] تحنث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فى غار حراء فى رمضان فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ، والتحنث التبرر . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كانت الكعبة أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً

---

(١) لطفى جمعه : ثورة الإسلام ص ٥١٤ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٤٨ .

أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ... » .

تزوج محمد صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة بنت خويلد ، التى وهبته إخلاصها وحنانها ، فلم يشغله حبها عن ربه ، ولم تلهه تجارتها وأموالها عما هو عازم عليه من العمل لما يقربه إلى الله عز وجل . فأعرب ازوجته عن رغبته فى الانقطاع عن الناس وملازمته الخلوة فى غار حراء ، واتخاذها مدرسة يطلب فيها الهدى من عند الله . فلم تعارضه فى ذلك ، بل إنها شجعته على المضى فى طريقه ، وصارت تعينه عليه .

لقد شغل ذكر الله عز وجل قلب محمد عليه الصلاة والسلام ، وهيمن التفكير فى آلائه على سائر حواسه ، وهو يرجو من الله سبحانه وتعالى أن يلهمه ما يرضيه من العبادات[١] .

كان محمد يقصد غار حراء فى رمضان من كل سنة ، يحمل القليل من الزاد ؛ فقد اشتهر دائماً بالزهد والقناعة ، فيمعن التأمل ، ويكثر من العبادة ، بعيداً عن الحياة ، وما حفلت به آنذاك من صخب وآثام ، مفكراً فى الخالق العظيم ، فيفطن إلى

(١) الخطيب : أسمى الرسالات ص ٤٣ .

ضلال قومه من قريش ، الذين نبذوا عبادة الله الواحد الأحد ، وانغمسوا فى عبادة الأوثان ، وفى رذائل الجاهلية وترفها .

جاء فى السيرة الحلبية[1] : « قيل : كان تعبّده صلى الله عليه وسلم التفكر مع الانقطاع عن الناس ، وقيل تعبده صلى الله عليه وسلم كان بالذكر . . . وقيل : كان يتعبّد قبل نبوته بشرع إبراهيم . . . وقيل : بكل ما صحّ أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك فى شرعنا » .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[2] » . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يخلو إلى نفسه فى غار حراء ، ويقع إلى جانب من جبل النور ، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة . وقد صاغت الطبيعة هذا الغار داخل حجر الصوّان الأحمر . وهنالك يقضى محمد شهراً فى خلوة تامة . وفى هذا الغار ، وفى رمضان المعظم ، نزل الوحى بكتاب الله العزيز ، القرآن الكريم ، وبدأ دور جديد عظيم فى تاريخ البشرية جمعاء .

---

(١) جـ ١ ص ٢٢٧ .   (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٠ .

البعثة النبوية فى رمضان

الرؤيات الصادقة :

اعتاد محمد عليه الصلاة والسلام أن يقصد غار حراء فى شهر رمضان من كل عام ، يخلو إلى نفسه ، ويتأمّل فى الحياة ، ويتوجّه بعبادته إلى الخالق العظيم . وكانت هذه الخلوة وهذا التأمل من أسمى صور العبادة ، حيث يقول الله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وتطمئنُّ قلوبُهُمْ بذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبَ)[١] ، كما قال عز وجل : (إنَّ فِى خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيلِ والنهارِ لآياتٍ لِأُولِى الأَلْبَاب . الَّذِينَ يذكُرُونَ اللهَ قياماً وقعودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ ، ويتفكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، ربّنا ما خلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ فقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[٢] .

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩١ .

كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستِّين سنة ».

ثم كانت الرؤيا الصادقة ، وهى أول تبشير بالنبوة ، وأن محمداً قد اصطفاه الله تعالى ليكون رسوله إلى العالمين ، هدى ورحمة ، فقالت السيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك : « إن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح »[1].

شارف محمد عليه الصلاة والسلام الأربعين من عمره ، وذهب إلى غار حراء يتحنث كعادته . وقد امتلأت نفسه الكريمة إيماناً بما رأى فى رؤياه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال . وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٤٩ .

خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه[١] .

وصف ابن هشام[٢] طلائع النبوة فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى تحسّر[٣] ، ويُفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان » .

وعلق السهيلى على هذه الرواية بقوله[٤] : « وهذا التسليم الأظهر فيه أن يكون حقيقة ، وأن يكون الله أنطقه إنطاقاً ، كما خلق الحنين فى الجذع ، ولكن ليس من شرط الكلام الذى هو صوت وحرف ، الحياة والعلم والإرادة ، لأنه صوت كسائر

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ١٣٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) تحسر عنه البيوت : تبعد عنه .

(٤) انظر الحاشية فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ .

الأصوات ، والصوت عرض فى قول الأكثرين ، ولم يخالف فيه إلا النظّام ، فإنه زعم أنه جسم ، وجعله الأشعرى اصطكاكاً فى الجواهر بعضها لبعض . وقال أبو بكر : ليس الصوت نفس الاصطكاك ، ولكنه معنى زائد عليه . . . إلى أن قال : ولو قدرت الكلام صفة قائمة بنفس الحجر والشجر ، والصوت عبارة عنه ، لم يكن بدّ من اشتراط الحياة والعلم مع الكلام ، والله أعلم أى ذلك كان : كلاماً مقروناً بحياة وعلم ، فيكون الحجر به مؤمناً ، أو كان صوتاً مجرداً غير مقترن بحياة ، وفى كلا الوجهين هو علم من أعلام النبوة ... وقد يحتمل تسليم الحجارة أن يكون مضافاً فى الحقيقة إلى ملائكة يسكنون تلك الأماكن ويعمّرونها ، فيكون مجازاً من باب قوله تعالى : (واسأل القرية)» .

شعر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقلق والحيرة ، وأخذ يتساءل فى نفسه عن هذه الأصوات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « طيلة العشرة شهور التى تقدّمت الوحى ، كان يتخلل نومى نور باهر يشبه فلق الصبح ، وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تنادى : يا محمد ! يا محمد ! فكنتُ أنظر يمنة ويسرة ، ومن خلف ، فلا أرى إلا شجيرات وصخوراً ، فيأخذنى القلق والحيرة . إننى ما أبغضت شيئاً بغضى للكهان

والسحرة ، وقد خشيت أن أكون قد أصبحت ، على غير علم مني ، واحداً منهم ، فيكون الذى يناديني — خفياًّ مستوراً — تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء فيساعدونهم بذلك على القيام بمهنتهم الآثمة » .

أسرّ الرسول عليه الصلاة والسلام بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها أن الله عز وجل يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، ويهيئه إلى البعث والرسالة[1] .

الوحى :

أصبح محمد صلى الله عليه وسلم فى الأربعين من عمره ، وهو سنّ النضج والرجولة الكاملة ، وفى شهر رمضان المعظم ، وفى غار حراء ، كان أول نزول الوحى ، ومشرق نور الإسلام .

اختلف المؤرخون فى تحديد يوم نزول الوحى ، فروى الطبرى[2] عدّة روايات ، بعضها يحدّد اليوم الثامن عشر من

---

(١) هيكل : حياة محمد ص١٣٠ . (٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص٤٤ .

شهر رمضان ، أو اليوم الرابع والعشرين ، ثم قال الطبرى : « وقال آخرون بل نزل لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، واستشهدوا لتحقيق ذلك بقوله عز وجل : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) ، وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر كان صبيحة سبع عشرة من رمضان » .

وقد وافق شهر رمضان هذا شهر يناير من سنة ٦١١ الميلادية .

وروى الطبرى[١] أيضاً أن أول نزول الوحى كان فى يوم الاثنين ، فروى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم الاثنين فقال : ذلك يوم وُلدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل علىّ فيه » .

تحدث ابن هشام[٢] عن ذلك اليوم الخالد ، فقال : « حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى » .

---

(١) الطبرى جـ٢ ص ٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٢ .

وصف الرسول عليه الصلاة والسلام نزول الوحى عليه ، فقال : « فجاءنى جبريل ، وأنا نائم ، بنمط[١] من ديباج فيه كتاب[٢] ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتّنى[٣] به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قلت : ماذا أقرأ ؟ فغتّنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى ، فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فرفعتُ رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم

---

(١) النمط : وعاء كالسفط .

(٢) قال بعض المفسرين : فى قوله تعالى : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) إنها إشارة إلى الكتاب الذى جاء به جبريل حين قال للرسول : اقرأ .

(٣) الغت : حبس النفس ، أى أن جبريل جعل النمط على فم الرسول وأنفه .

وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رُسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى »[١] .

ويرى المفسرون أن فى تكرار كلمة (اقرأ) إشارة إلى انحصار الإيمان الذى ينشأ عنه الوحى بسببه فى ثلاث : القول ، والعمل ، والنية ، وأن الوحى يشتمل على ثلاث : التوحيد ، والأحكام ، والقصص[٢] .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى داره ، وهرع إلى خديجة ، وخبأ رأسه فى حجرها ، وقد أخذته رعدة ، فقال : دثرونى ، دثرونى . وأسرع الخدم إليه يزملونه ويدثرونه ، حتى هدأ روعه . وتوجهت السيدة خديجة إليه بالسؤال : « يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت برسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى » . وحدثها الرسول بما رآه ، فقالت خديجة : « أبشرْ فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٢) انظر شرح المواهب .

الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[١] .

وكانت خديجة ، رضى الله عنها ، على حق فى مقالتها ، فقد وصفت محمداً ، عليه الصلاة والسلام ، بما اشتهر به ، من سجايا حميدة ، وأخلاق سامية ، عرفها قومه جميعاً ، إذ اشتهر بينهم باسم « الصادق الأمين » . واسترجعت خديجة فى ذاكرتها أحداثاً ماضية ، حين عاد غلامها ميسرة إليها ، يروى لها ما شاهده فى رحلته مع محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت العناية الإلهية تحمى محمداً من حرارة الشمس ، فقال ميسرة لخديجة : « إن هذا الغيم الذى لاحظته لم يتخلف قط من مرافقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ، ومنذ أن تركنا بصرى ، وقد عرفنى رهبان حوران العلماء من هو محمد ، فعرفت أن هذا الغيم ليس إلا أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدى من قيظ الشمس المهلك » .

حديث ورقة بن نوفل :

استغرق محمد فى النوم ، تلحظه عينا زوجه الأمينة المخلصة ، التى أخذت تفكر ملياً فى حديث زوجها ، وترجو

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٠ .

من المولى عزّ وجل أن يكون ذلك فاتحة خير ، وأن يكون زوجها هو النور الذى يبدد ظلام العالم . ثم شعرت أنها فى حاجة إلى من تحدثه عما يجيش فى نفسها ، فاختارت رجلاً من أقاربها اشتهر بالحكمة والعلم والرأى السديد .

غادرت خديجة دارها قاصدة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان ورقة قد اعتنق المسيحية وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ، وكان شيخاً طاعن السن ، كاد يفقد بصره .

قصّت السيدة خديجة على ابن عمها ما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما رآه وسمعه . فقال ورقة : قدوس قدوس[1] ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس[2] الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبيّ هذه الأمة ، فقولى له (فليثبت)[3] .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف يوماً بالكعبة ،

---

(١) أى طاهر طاهر ، وأصله من التقديس أى التطهير .

(٢) الناموس (فى الأصل) صاحب سر الرجل فى خيره وشره ، فعبر عن الملك الذى جاء بالوحى .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٤ .

وكانت هذه هى عادته بعد كل فترة يقضيها فى التحنث . وهناك التقى بورقة بن نوفل ، وأسرع ورقة إلى الرسول ، رغم شيخوخته ووهنه ، وفقده بصره ، وسأله : يابن أخى أخبرنى بما رأيت أو سمعت . فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ، ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه .

وأدنى ورقة رأسه وقبّل يافوخ الرسول . ثم انصرف الرسول عليه الصلاة والسلام إلى داره « وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً ، وخفّف عنه بعض ما كان فيه من الهمّ »[١] . ولكن حياة ورقة لم تطل حتى يبرّ بوعده للرسول .

نزل الوحى كجذوة وهّاجة بدّدت من نفس محمد عليه الصلاة والسلام كلّ شكّ ، وأشعلت فيه تلك الآمال اللاشعورية ، وتلك القوى الكامنة التى كدّسها فى نفس خمس عشرة سنة تقضت فى التأمل والتحنث . لقد فتح الوحى عينيه على آفاق

---

(١) الطبرى حـ ٢ ص ٥٠ .

شاسعة ، وأظهره على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود جبارة[١] .

خديجة والوحى :

توجهت السيدة خديجة رضى الله عنها ، إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال ، فقالت : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ فقال الرسول : نعم . فقالت : فإذا جاءك فأخبرنى به .

حتّى إذا جاء جبريل عليه السلام كعادته ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لخديجة : يا خديجة ، هذا جبريل قد جاءنى . فقالت : قم يابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام الرسول وجلس عليها . ثم سألته خديجة : هل تراه ؟ فأجاب : نعم . فقالت خديجة : فتحول فاجلس فى حجرى . حتّى إذا جلس الرسول فى حجرها ، سألته : هل تراه ؟ فأجاب : نعم . فتحسرت السيدة خديجة وألقت خمارها ، وسألت الرسول : هل تراه ؟ فأجابها : لا . فقالت : يابن عم ، اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملكٌ وما هذا بشيطان[٢] .

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ٩١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٥ .

نزول القرآن على الرسول فى رمضان

نزول القرآن الكريم :

فى ليلة خالدة من ليالى شهر رمضان المعظم ، بدأ نزول القرآن الكريم ، وتوالى الوحى طيلة ثلاث وعشرين سنة ، مرشداً وهادياً ، مثبتاً لقواعد الدين ، موضحاً طريق انتصار الإسلام .

تحدث ابن هشام[١] عن ابتداء تنزيل القرآن الكريم فى شهر رمضان ، فقال : « فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى شهر رمضان ، بقول الله عز وجل : (شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِل فيه القرآن هدًى للناس وبيّنات من الهُدَى الفُرْقان) ، وقال الله تعالى : (إنا أَنْزَلناه فى ليْلةِ القدْرِ . وما أدْراكَ ما ليلةُ القَدْرِ . ليلةُ القدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر . تنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ ربِّهم من كلِّ أمْر ، سلامٌ هى حَتّى مَطْلَعِ الفَجرِ) . وقال الله تعالى : (حم والكتَابِ المبين . إنَّا أنْزَلْنَاهُ فى ليلةٍ مباركةٍ إنا كنَّا

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .

مُنْذِرِينَ . فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حكيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) » .

وأشاد ابن هشام[١] بجهود الرسول عليه الصلاة والسلام فى تبليغ ما نزل به الوحى فقال : « ثم تتام الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوّة أثقال ومُؤْنة ، لا يحملها ولا يستطيع النهوض بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يَلْقَوْن من الناس وما يُردّ عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى » .

إسلام خديجة :

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها ، أوّل من اعتنقت الإسلام ، وأول من آمنت بالله ورسوله . وكان بديهيًّا أن تسارع إلى الإيمان ، فقد جرّبت على الرسول طوال حياته الأمانة والصدق وعلوّ النفس وحبّ البرّ والرحمة ، وقد رأته فى سنوات

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .

تحنثه كيف شغلت نفسه بالحق ، وبالحق وحده ، يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وبعقله[١] .

وكان لإسلام خديجة ، وإيمانها برسالة محمد ، أثره الكبير في نفسه ، فقال ابن هشام[٢] : « فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبّته وتخفف عليه، وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى».

أصبح لخديجة فضل السبق إلى الإسلام ، ونالت بذلك رضا ربها ورحمته ، فقد أتى جبريل عليه السلام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال الرسول لخديجة : يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربّك . فقالت : الله السلام، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام. وقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم زوجه خديجة بالجنة[٣] .

فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شقّ ذلك عليه فأحزنه ، حتى إن خديجة قالت له : ما أرى ربك إلا قد قلاك . ولكن الله عز وجل قد اصطفاه ، ولذا جاءه

---

(١) هيكل: حياة محمد ص١٣٤ . (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٧ .

جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ما ودّعه وما قلاه .

زال كل شك أو قلق ، وأدرك محمد عليه الصلاة والسلام أن العناية الإلهية ترعاه ، وأن الله عز وجل قد اصطفاه ، وأنه قد أصبح رسول الله إلى العالمين ، « فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله ، فكان أول من صدّقه وآمن به واتبعه من خلق الله فيما ذكر زوجته خديجة رحمها الله »[1] .

الصلاة :

وبعد التوحيد ، كانت الصلاة ، وما يسبقها من طهارة ، أول شرائع الإسلام ، فيقول الطبرى[2] : « كان أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الإسلام عليه — أى على الرسول صلى الله عليه وسلم — بعد الإقرار بالتوحيد ، والبراءة من الأوثان والأصنام ، وخلع الأنداد ، الصلاة » .

أتى جبريل عليه السلام ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٥٣ . (٢) الطبرى جـ ٢ ص ٥٣ .

منه عين ، فتوضّأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى الرسول بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام[١] .

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، حيث التقى بخديجة ، فتوضأ أمامها ليريها كيف الطهور للصلاة كما علمه جبريل ، فتوضأت ، ثم صلى بها الرسول ، كما صلى به جبريل عليه السلام ، فصلت بصلاته[٢] !

ثم كان إسلام على بن أبي طالب ، وإقامته الصلاة خلف الرسول . وكان علىّ حينئذ فى العاشرة من عمره ، مقيماً فى بيت الرسول ، فى كفالته ، إذ أراد الرسول أن يخفف عن عمه أبى طالب ، وكان ذا عيال كثير ، وكانت قريش تمر بأزمة شديدة[٣] . رأى علىّ الرسول وخديجة يصليان ، فعجب مما رآه ، حتى إذا انتهيا من الصلاة ، توجّه إليهما بالسؤال عن سبب سجودها . فأخبره الرسول أنهما يسجدان لله عز وجل ، الذى اصطفاه رسولاً ونبيًّا ، وأمره بأن يدعو الناس إلى عبادته سبحانه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٠ . (٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٤ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٣ .

وتعالى . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى اعتناق الإسلام ، وإلى نبذ عبادة الأوثان ، وتلا محمد بعض آيات القرآن الكريم ، فأُخِذ عليّ بإعجاز هذه الآيات وجمالها ؛ وطلب عليّ من الرسول أن يمهله حتى يشاور أباه أبا طالب ، فطلب الرسول منه أن يكتم الأمر . وقضى عليّ ليلة مضطربة ، أمعن فيها التفكير ، حتى إذا كان الصباح التالى ، أعلن عليّ للرسول إيمانه وإسلامه .

ثم كان إسلام زيد بن حارثة ، مولى الرسول ، وهو عربى من قبيلة كلب ، وكان هذا الشاب قد أسره فى طفولته جماعة من قريش ثم اشترته خديجة ، ووهبته إلى محمد . وبعد عدّة سنوات سمع أبوه بوجوده فى مكة ، فأراد أن يفتديه بمبلغ من المال ، فوافق محمد على أن يكون لزيد أن يختار الذهاب مع أبيه الحقيقى ، أو البقاء مع محمد . ففضل زيد البقاء ، فقد كان محمد يعامله معاملة الابن . وعندئذ تبناه محمد ، حتى إذا اعتنق زيد الإسلام أعتقه الرسول ، وآثر زيد البقاء مع الرسول صلى الله عايه وسلم .

مضى الإسلام فى طريق النجاح والنصر ، فأسلم أبو بكر صديق الرسول الحميم ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف .

ودعا أبو بكر إلى الإسلام كل من وثق به من قومه ، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام .

ليلة القدر:

بدأ نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر ، وهى من ليالى شهر رمضان المباركة . وقد وصف الله عز وجل هذه الليلة الخالدة بأنها خير من ألف شهر ، إذ تتنزل فيها الملائكة وجبريل ، بإذن من خالقهم العظيم ، من العالم الروحى ، حيث يخالطون النفوس الآمنة المطمئنة ، الممتلئة بالإيمان العميق . وتمضى هذه الليلة الميمونة المباركة فى خير وسلام حتى مطلع الفجر .

أطلق على ليلة القدر هذا الاسم - كما يقول الإمام محمد عبده - لأن الله عز وجل ابتدأ فيها تقدير دينه ، وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . والقدر بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظمه بالرسالة .

وقد نتساءل : أى ليلة من ليالى رمضان هى ليلة القدر ؟ ويجيب الإمام محمد عبده أيضاً عن هذا التساؤل فيقول : وكتاب الله لم يعينها ، وما ورد فى الأحاديث من ذكرها إنما

قصد به حثّ المؤمنين على إحيائها بالعبادة شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله إفاضته فيهم فى أثنائها ، ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات ، فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالعبادة فى الشهر كله، وهذا هو السرّ فى عدم تعيينها .

وليلة القدر ليلة مباركة ، يقول الله عز وجل عنها فى سورة الدخان : (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناهُ فى ليلةٍ مباركةٍ إنّا كنّا مُنْذِرين . فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيمٍ . أمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إنّا كنّا مُرْسِلِين . رحْمَةً مِنْ ربِّك إنه هو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

روى الطبرى[1] عن ابن مسعود أنه قال : « التمسوا ليلة القدر فى تسع عشرة ليلة من رمضان فإنها ليلة بدر » . كما روى الطبرى عن زيد أنه « كان لا يحيي ليلة من شهر رمضان كما يحيي ليلة تسع عشرة وثلاث وعشرين ويصبح وجهه مصفراً من أثر السهر . فقيل له ، فقال : إن الله عز وجل فرّق فى صبيحتها بين الحق والباطل » .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠ .

الرسول فى رمضان بالمدينة المنورة بعد الهجرة

الهجرة إلى المدينة :

ظل الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد البعثة النبوية ، ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سرًّا كلَّ من يثق فيه أو يرى منه قبولاً للدين الجديد ، وكان يصلى هو والمسلمون خفية فى شعاب مكة[١] . إلى أن أمره الله بإظهار دينه ، فجهر الرسول بالإسلام، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله . واشتدَّ إيذاء قريش للمسلمين ، فكانت هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة . واستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام ، فلما أسلم حمزة بن عبد المطلب، وكان شخصية لها شأن كبير ، كف القرشيون عن بعض أذاهم . حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب ، جهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم ، وصلوا عند الكعبة ، واعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر[٢] .

رأى القرشيون أن يتخذوا أمراً حاسماً ، فاتفقوا على مقاطعة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥ .

بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فظلوا مهجورين فى شعاب مكة ثلاث سنين ، ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم ، فاضطرت قريش إلى إنهاء المقاطعة ، وعاد بنو هاشم والمطلب إلى ديارهم[١] .

فقد الرسول بعد حادث المقاطعة بقليل نصيرين قويين ، هما عمه أبو طالب وزوجه خديجة ، فتألم لفقدهما فى عام واحد وسمّاه عام الحزن . وازدادت قريش فى إيذاء الرسول وأصحابه ، فخرج إلى مدينة الطائف يدعو قبيلة ثقيف لينصروه على قريش ، فلم يستجيبوا له ، بل آذوه . وعاود الرسول نشر الإسلام بين أهل مكة ، وخاصّة فى موسم الحج . وبعد فترة وجيزة أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث عُرج به إلى السموات السبع ، وفى تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس[٢] .

ثم كانت هجرة الرسول والمسلمين إلى المدينة . وعمل الرسول على تنظيم الحياة العامة فى المدينة ، تحقيقاً للوحدة بين سكانها ،

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥ — ١٠ .

فآخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة[١] . واستجاب الأنصار للرسول فساعدوا المهاجرين بمنحهم بعض المال والاشتراك معهم فى الزراعة والتجارة ، كما عاهد الرسول اليهود واشترط عليهم ، ووضح لهم حقوقهم وواجباتهم .

فرض الصيام :

فى السنة الثانية من الهجرة ، وفى شهر شعبان على الأرجح ، فرض الله عز وجل على المسلمين صيام شهر رمضان ، وكان ذلك قبل غزوة بدر[٢] .

كان أول ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، عند قدومه إلى المدينة ، هو بناء مسجده النبوى ، على الأرض التى بركت فيها ناقته . واشترك مع المسلمين فى بناء المسجد . وكان الرسول ، فى أول الأمر ، يترك للمسلمين حرية اختيار قبلتهم فى الصلاة ، لأنه كما قال الله تعالى: (ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثمّ وجهُ الله ، إنّ الله واسعٌ عليم)[٣] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٣ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية ١١٥ .

وحينما أوشك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينتهى من بناء مسجده بالمدينة، رأى أن يتجه المسلمون إلى وجهة واحدة، ولذا عمد إلى قالب مصنوع من الحجر والطين ووضعه ملاصقاً للحائط الشمالى من المبنى، وبه عين القبلة الأولى، وكانت بيت المقدس. ولكن الله عز وجل أمر أن تكون الكعبة قبلة المسلمين، فقال سبحانه وتعالى: (قد نرى تقلّب وجهك فى السماء، فلنولينّك قبلةً ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطْره)[١].

ثم كان اختيار الآذان للدعوة الإسلامية، فقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينظم دعوة المسلمين للصلاة فى المسجد، فقد كثر عدد المسلمين، وتناثروا فى أرجاء المدينة. وصعد بلال ابن رباح إلى سطح المسجد يؤذن فى المسلمين يدعوهم للصلاة للخالق العظيم.

روى الأقدمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وأن هذه الأيام الثلاثة كتبها الله على المسلمين، ثم نسخت بصيام شهر رمضان، ويرى بعض المفسرين أن هذه الأيام الثلاثة هى التى قصدها

(١) سورة البقرة آية ١٤٤.

الله عز وجل بقوله : (أياماً معدودات) الآية . كما يرون أيضاً أن صيام هذه الأيام كان تطوعاً ولم يكن فريضة ، فقد روى عن عمرو بن مرة أنه قال : « حدثنا أصحابنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم عليهم أمرهم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعاً لا فريضة . قال : ثم نزل صيام رمضان »[١] .

وروى بعض الأقدمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود تصوم عاشوراء فسألهم عن صيامهم فى هذا اليوم فقالوا إنه اليوم الذى غرّق الله تعالى فيه آل فرعون ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال الرسول إنه أحق بموسى منهم ، فصام الرسول ذلك اليوم وأمر المسلمين بصومه[٢] . وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن صوم عاشوراء كان واجباً قبل صيام رمضان ، فى حين ذهب الإمام الشافعى إلى أنه لم يزل سنّة ولم يكن واجباً قط فى هذه الأمة ولكنه متأكد الاستحباب .

ويقول الطبرى : لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم رمضان ، ثم نسخ بصوم شهر رمضان ، وبأن الله تعالى قد بين فى سياق الآية أن الصيام

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٩ .

الذى أوجبه جلّ ثناؤه علينا هو صيام شهر رمضان دون غيره من الأوقات بإبانته عن الأيام التى أخبر أنه كتب علينا صومها بقوله : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . فمن ادعى أن صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذى هم مجمعون على وجوب فرض صومه ، ثم نسخ ذلك ، سُئل البرهان على ذلك من خبر تقوم به حجة إذا كان لا يعلم ذلك بخبر يقطع العذر[1] . وينفى الإمام محمد عبده أن يكون قد فُرض على المسلمين صيام قبل فرض صيام رمضان[1] .

نزلت آيات كريمة تفرض الصيام على المسلمين هى : (شهرُ رمضان الذى أُنْزِلَ فيه القرآنُ هدًى للناس وبَيِّنات من الهُدَى والفُرْقَان . فمن شَهِد منكم الشَّهرَ فليصُمْه . ومَنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدَّةٌ من أيام أُخَر . يريدُ اللهُ بكم اليسرَ ولا يريد بكم العُسْر . ولِتكمِلُوا العِدَّة ولِتكبِّرُوا الله على ما هداكم ولعلكُمْ تَشْكُرُون)[3] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢ ص ٧٧ .

(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

ورغم صيف المدينة المنورة القائظ ، فقد أقبل المسلمون جميعاً ، على أداء فريضة الصيام ، فى خشوع وحماس . فتتقوى بهذه الرياضة الروحية أواصر الأخوة بينهم ، وينتصر المؤمنون متعاونين على هذا العدو الشرس ، أعنى الجوع والظمأ ، فيصبحون أكثر استعداداً وأوثق تعاوناً لمجابهة أشدّ أعدائهم مراساً من بنى البشر .

ويستمر المهاجرون والأنصار على صيامهم ثلاثين يوماً ، فى تحمس زائد ، فإن هذا الصوم هو شكر يتوجهون به لمانح النعم . وهذا الاختبار الدينى التعبدى يحيى الأرواح ويقوّى الأجسام . ولأجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات الرهيبة التى تحيط بهم لنشر الإسلام فى أرجاء العالم ، كى تكون كلمة الله هى العليا ، كان لابدّ لهم من هذا التدريب الذى يعتبر هيناً بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد فى فتوحاتهم[1] .

وقد نتساءل : لماذا خصّ المولى عزّ وجل شهر رمضان المعظم بالصيام ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول إنه الشهر المبارك الذى أنزل الله عز وجل فيه القرآن هدى للناس وبينات من

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٠ .

الهدى والفرقان . وفى ذلك يقول الفخر الرازى[١] : « اعلم أنه تعالى لما خصّ هذا الشهر بهذه العبودية ، بين العلة لهذا التخصيص ، وذلك هو أن الله سبحانه وتعالى خصّه بأعظم آيات الربوبية ، وهو أنه أنزل فيه القرآن ، فلا يبعد أيضاً تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية ، وهو الصوم ، ومما يحقق ذلك أن الأنوار الصمدية متجلية أبداً يمتنع عليها الاختفاء والاحتجاب ، إلا أن العلائق البشرية مانعة من ظهورها فى الأرواح البشرية ، والصوم أقوى الأسباب فى إزالة العلائق البشرية ، ولهذا قال عليه الصلاه والسلام : "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات" ، فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فلما كان هذا الشهر مختصاً بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصاً بالصوم ».

تفضيل رمضان وفضائله :

شاء الله عز وجل أن يكون فى الناس ، وفى سائر المخلوقات ، فاضل ومفضول ، بما خصّها الله من مميزات

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٢٢ .

وصفات فى بعضها دون البعض الآخر . فهناك بشر فضلهم الله على غيرهم بما امتازوا به من صلاح وتقوى حيث قال الله سبحانه وتعالى : (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ويوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع ، فهو يوم اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة ، وفيه ساعة يستجيب فيها الخالق العظيم دعاء المؤمنين . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة » .

وشهر رمضان هو أفضل شهور العام ، فهو الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ، وخصه بصيام المسلمين ، وليلة القدر هى إحدى لياليه المباركة ، وهو شهر العبادة والمحبة والمودة والخير والإحسان ، وهو الشهر الذى يؤدى فيه المسلم زكاة الفطر .

وأبرز الرسول عليه الصلاة والسلام فضائل رمضان ، فقال : « أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر فيه إلى تنافسكم فى الخير ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقى

من حرم من رحمة الله عز وجل » .

وهناك أحاديث كثيرة للرسول الكريم ، يشيد فيها بفضائل شهر رمضان نقتطف بعضها : روى الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حضر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » . وروى ابن حبان فى صحيحه أن الرسول قال : « من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ ما ينبغى له أن يتحفظ كفر ما قبله » . كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله فرض صيام رمضان وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . ومن الأحاديث الشريفة التى رواها البخارى : « إن فى الجنة باباً يقال له الديان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم . يقال أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل أحد » .

كان جبريل فى شهر رمضان كثير الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتدارسان القرآن الكريم فى لياليه ، يعرض القرآن الكريم كله عليه ، مرّة فى كلّ رمضان . وفى رمضان الأخير من حياة رسول الله عرض القرآن عليه مرتين . ويقول

ابن عباس فى صحيح البخارى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

قرن الله سبحانه وتعالى شهر رمضان بالقرآن الكريم ، فهذا الشهر المبارك هو الذى شهد نزول القرآن ، وهذا قرن برمضان كل ما يذكر له من خير ، ولذا كان على المسلمين أن يعبروا عن شكرهم للخالق العظيم بالصيام فى هذا الشهر .

وقرن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً صيام رمضان بالقرآن الكريم ، فهو يقول : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى ربّى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه فيشفعان » .

فى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بإخراج زكاة الفطر ، وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بذلك . وفى هذه السنة ، خرج الرسول إلى المصلى فصلى بالمسلمين

صلاة العيد » وكان ذلك أول خرجة خرجها الناس إلى المصلى لصلاة العيد »(١) .

خصّ الله الأمة الإسلامية فى شهر رمضان بمزايا عديدة ، وفضائل جليلة ، يفصح لنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « أعطيت أمتى خمساً فى رمضان لم يعطهن نبىّ قبلى : الأولى : إذا كان أول ليلة من رمضان نظر الله إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه . الثانية : فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . الثالثة : فإن الملائكة يستغفرون لهم فى كل يوم وليلة . الرابعة : فإن الله عز وجل يأمر جنته ويقول لها : استعدّى وتزيّنى لعبادى الصائمين ، فقد أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . الخامسة : فإنه إذا كان آخر ليلة من رمضان غفر لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر يا رسول الله ؟ فقال الرسول : ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم ؟ » .

إن الغاية التى شرعت العبادات لتحقيقها لها ناحيتان : ناحية إلهية ، وناحية اجتماعية إنسانية . أما الناحية الإلهية فهى أن العبادة تذكر الإنسان بربه ، وتشعره بألوهيته ، وتقوى الصلة

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩ .

به ، وفى هذا حياة لضمير الإنسان ، وتوجيهه إلى الخير والبر والفضيلة ، وإبعاده عن المنكر والشرور . أما الناحية الاجتماعية للعبادات ، فإن كل عبادة فرضها الله عز وجل تصلح فى الإنسان ناحية من نواحيه ، وتؤدى إلى خلق مجتمع إنسانى مثالى . والصوم من أركان قيام مثل هذا المجتمع ، فهو يخلق المواطن الصالح ، ويوجه سلوكه ، ويهذب نفسه ، ويبنى أخلاقه ، وينمى الإرادة القوية فى طبعه ، ويوقظ الضمير الحى فى أعماقه . والفرد هو لبنة المجتمع .

وفى شهر رمضان يرتبط الوجدان بالعمل ، والفرد بالمجتمع ، والدين بالحياة ، فكما أنه تربية للفرد يوجه سلوكه ، ويهذب غرائزه ، ويدفعه إلى العمل المثمر فى إخلاص وصبر ، كذلك تتعدى آثار الفرد إلى المجموع بالتعاطف والتضحية ، والإيثار والبذل ، والتكافل والتضامن ، حتى إن قبول الصيام ليتوقف على زكاة الفطر فى آخر رمضان ، والصوم لا يكون صوماً حقاً إلا إذا انعكس أثره على حياة الصائم طوال شهر رمضان .

أول رمضان بعد الهجرة :

شهد أول شهر رمضان أمضاه الرسول صلى الله عليه وسلم

في المدينة المنورة ، بعد هجرته إليها من مكة ، أول المناوشات التى كانت بين المسلمين والوثنيين من قريش ، فقد روى الطبرى[١] أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، عقد فى السنة الأولى بعد الهجرة ، فى شهر رمضان ، لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض ، وأنه خرج على رأس ثلاثين فارساً من المهاجرين ، إلى منطقة « سيف البحر » عند شاطئ البحر الأحمر ، من ناحية العيص ، وهى من أرض جهينة ، ليعترض قافلة لقريش يقودها أبو جهل بن هشام ، وكانت القافلة تضم ثلثمائة فارس من أهل مكة ، ولكن مجدى بن عمرو الجهنى حال دون القتال إذ كان موادعاً للفريقين ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن بينهم قتال. ويقول الطبرى[٢] : « وبعض القوم يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين » .

كانت سرية حمزة بن عبد المطلب هى السرية الأولى التى بعثها الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان ، ثم تبعتها سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فى شهر شوال وتتألف من

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢١ .

ستين مسلماً من المهاجرين ، فالتقت بقافلة لقريش يقودها عكرمة بن أبي جهل على ماء اسمه (أحياء) فتراشقوا بالسهام ، بدون التحام ، وأصيب سعد بن أبي وقاص بسهم . ثم خرجت سرية سعد بن أبي وقاص تضم ثمانية من المهاجرين .

والسرية هي ما لم يخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو خرج ولم يحارب . أما التي خرج فيها وحارب فتسمى غزوة .

تولى المهاجرون هذه السرايا وحدهم دون الأنصار ، لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية من جانبهم ، فلم يشتركوا في الهجوم على القوافل التجارية لقريش ، ولم يدعهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم في حربها ، بل حدث أن قريشاً أغارت في هذه الفترة على سرح المدينة ، فخرج الرسول بالمهاجرين وحدهم إلى المغيرين من قريش لأن المغيرين كانوا في عدد قليل ، فلم يكن هناك ما يدعو إلى خروج الأنصار[1] .

قُصد بهذه السرايا إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوه من الاضطهاد ، تفاهماً يقي الطرفين شرور

---

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الإسلامية) ص ٢٣ .

العداوة والبغضاء ، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام .

مغزى سرية رمضان :

كانت قبيلة قريش قبيلة تجارية ، تعتمد على التجارة فى مواردها ، فكانت إذا أيقنت قريش تعرض هذه التجارة للخطر آتياً من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينة ، دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم تفاهماً طمع المسلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطمحون إليه من حرية الدعوة إلى دينهم ، ومن حرية الدخول إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً . ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها وإيصاد طريق التجارة فى وجهها[1] .

وكانت هذه السرايا تشعر قريشاً بما صار للإسلام من قوة فى المدينة ، وأن على قريش أن تخفف من عداوتها للإسلام ، وأن ترفع يد الإرهاب عن المسلمين الباقين فى مكة ، إذ صار فى استطاعة المسلمين فى المدينة أن يقتصوا من أهل مكة بأن يقطعوا عليهم طريق القوافل بينهم وبين الشام .

---

(١) هيكل : حياة محمد ، ص ٢٤٠ .

كما كان موقع المدينة يساعد المسلمين على النصر ، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق التى تمرّ بها القوافل إلى الشام ، وكانت التجارة المورد الوحيد بمكة ، إذ كانت وادياً غير ذى زرع ، فإذا ما منع الرسول هذه القوافل ، فلابدّ من أن المجاعة ستسود هذه البلدة الجاحدة وتضطرها إلى الإتيان خاضعة للرسول دون أن يلجأ إلى إراقة دماء قومه المكيين ، الذين كان يحافظ عليهم ، رغم إيذائهم له ، والذين كان يودّ لهم الخير ، آملاً فى أن يهتدوا يوماً ، فيكون منهم الأساس الإسلامى الوطيد[1] .

استفاد المهاجرون من هذه السرايا ، إذ تعرفوا على الطرقات والأماكن المحيطة بالمدينة ، وخاصّة المناطق الواقعة بين المدينة والبحر الأحمر . كما أدّت هذه السرايا إلى موادعة القبائل الضاربة فى هذه المناطق ، مما أدّى إلى تأمين المدينة .

وكان خروج المسلمين فى هذه السرايا على نحو لم يألفوه قبل الإسلام ، فقد اعتاد المسلمون الآن الخروج فى نظام حربى دقيق ، تحت قيادة موحدة ، يدفعهم إيمان قوى ، ويحاربون من أجل عقيدة سامية ، وليس كما كانوا فى جاهليتهم غارقين فى حروب قبلية وغارات من أجل السلب والثأر .

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٦.

كما كانت هذه السرايا توقع الرعب فى قلوب يهود المدينة ، وغيرهم من اليهود الذين يضربون حول المدينة ، هؤلاء اليهود الذين أبدوا عداءً شديداً للإسلام والرسول والمسلمين ، كما كانت هذه السرايا أيضاً كفيلة بأن ترفع من الروح المعنوية للمسلمين، وتشعرهم بقوتهم ،وتزيدهم إقبالاً على التأهب النفسى والاستعداد للقتال[١] .

أدركت قريش ما وصل المسلمون إليه من قوة ، فلم تعد تخرج من مكة قوافل صغيرة ، بل انتظمت فى قافلة كثيفة ، تمضي فى طريقها فى حراسة شديدة قوية .

إعلان الجهاد :

كان شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة تحوّلاً كبيراً ، إذ شهد هذا الشهر – كما رأينا – خروج أول السرايا . فقد أصبح المسلمون فى المدينة قوة سياسية واجتماعية وعسكرية . وبدأ المسلمون جهادهم الأكبر فى شهر رمضان من السنة الثانية ، مما مهد لحدوث غزوة بدر الكبرى .

كانت تلك الفترة التى قضاها المهاجرون بالمدينة كافية

---

(١) جمال حماد : غزوة بدر ص ٣٩ .

لحمل الأنصار على مشاركة المهاجرين فى جهادهم ، من أجل نشر عقيدتهم ، لأنهم صاروا جميعاً إخواناً فى الدين والوطن والقومية ، وقد اطمأن كلّ فريق منهم إلى الآخر ، وعلم الأنصار أن المهاجرين قد نسوا وطنهم الأول ، مكة ، وحاربوا أهله من قومهم وأقاربهم ، وعلموا أن هذا الوطن الجديد ، المدينة ، سيجمع بين الفريقين إلى ما شاء الله عز وجل ، فلا يصح أن ينفرد أحدهم بحرب دون الآخر ، ولا سيما بعد أن بدأت قريش بالهجوم على سرح المدينة ، فمن حق الأنصار أن يشتركوا فى الهجوم على قوافل قريش ، لأنها لم ترع إحجامهم عن حربها مع المهاجرين ، وهم إخوانهم فى الدين ، ولهم عليهم حق الوطن والجوار .

حان وقت الالتجاء إلى السيف من أجل انتصار الإيمان . وكان لا بدّ من الجهاد فى سبيل الله ونصرة دين الحق ، ونزلت آيات كريمة تحث المسلمين على الجهاد فقال سبحانه وتعالى : (وقاتلُوا فى سبيل الله الذين يُقَاتِلُونكم ولَا تَعْتَدُوا ، إنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين . واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وأَخرجُوهم من حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ)[1] .

---

(١) سورة البقرة ١٩٠ – ١٩٢ .

لقد صبر الرسول صلى الله عليه وسلم طويلاً ، وصبر المسلمون معه كذلك حقبة طويلة على إيذاء المشركين ، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أذاقوهم فيها أليم العذاب . فرأى المسلمون ، مؤيدين بالقرآن الكريم ، أن لهم الحق فى استعمال السيف دفاعاً عن أنفسهم[1] .

مقدمات غزوة بدر :

فى شهر رجب من السنة الثانية بعد الهجرة ، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن جحش على رأس نفر قليل من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا يفضه إلا بعد يومين من رحيله . وجاء فى هذا الكتاب : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم »[2] وتخلف عن الركب سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، حيث كانا يبحثان عن بعير لهما ، كانا يتبادلان ركوبه ، فأسرتهما قريش . ومضى عبد الله بن جحش فى طريقه حتى

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٦ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢٤ . (كان المسلمون ثمانية أو اثنى عشر مهاجراً) .

نزل مع رفاقه فى نخلة . ومرّت بهم عير لقريش عليها عمرو ابن الحضرمى .

كان ذلك اليوم هو آخر أيام رجب ، وتشاور المسلمون فيما يفعلون ، فقال أحدهم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام . وكما روى الطبرى [١] « تردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم تشجعوا عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم » . وانتهى الأمر بمصرع عمرو بن الحضرمى ، وأسر رجلين من قريش . وعاد المسلمون بأسيريهم وغنائمهم إلى المدينة . فقال الرسول لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . وانتهزت قريش الفرصة فقالت : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام . ودافع المسلمون بالمدينة عن إخوانهم المهاجرين فقالوا : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان . واستغلّ اليهود هذه الفرصة أيضاً للإساءة للمسلمين [٢] .

وحسم الموقف نزول الآيات الكريمة : (يَسْأَلُونك عن

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٤ .

الشَّهْر الحَرام قِتَالٍ فيه قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كبيرٌ وصدٌّ عن سَبِيلِ الله وكفرٌ به والمسجِدِ الحراموإخراجُ أهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والفتنةُ أكْبَرُ مِنَ الْقَتْل لَا يزالُون يقاتلونَكُمْ حتى يردُّوكم عَن دِينكُمْ إن اسْتَطَاعُوا)[(١)] ، وأطلق الرسول سراح الأسيرين ، مقابل إطلاق قريش سراح سعد وعتبة ، وقد أسلم أحد الأسيرين ، وهو الحكم بن كيسان ، وأقام فى المدينة ، وعاد الاخر إلى مكة [(٢)].

وهذه الآيات الكريمة توضّح المعنى الصريح للجهاد فى سبيل الله ، فهو قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله . وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه . والدفاع عن الرأى يكون بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى ، أما إذا لجأ العدو إلى القوة المسلحة ، وجب دفعها بالقوة أيضاً . وكرامة الإنسان تتركز فى عقيدته ، والعقيدة أثمن من المال والجاه والسلطان ، ومن الحياة نفسها . فالعقيدة

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) وهو عثمان بن عبد الله .

هى هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان ، والصلة الروحية بين المرء وربه . وعلى المؤمن أن يدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة ، وأن يقف فى وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله[١] .

كانت سرّية عبد الله بن جحش فى مفترق الطرق ، فعلى رغم أنها كانت من عدد ضئيل لا يقصد الحرب ، ولا يستطيع أن يشب لها ناراً ، فإنها صارت نقطة تحول فى سياسة الإسلام ، إذ شرع للمسلمين أن يقاتلوا الذين فتنوهم عن دينهم . وذلك التشريع كان أوّل أمر بالجهاد فى سبيل الله .

ولم يكن مفترق طريق للمسلمين وأهل المدينة وحدهم ، ولكنه كان أيضاً بالنسبة لقريش ، فقد بدأت مكة تعد للبأس والقوة وتجمع للعيرات المسافرة إلى الشام أموالاً كثيرة من شتى بيوت أهل مكة ، وتجعل عليها أعداداً كبيرة من الرجال ذوى الحيلة والدربة وتزودهم بالمعرفة والحذر والسلاح[٢] .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٢٤٧ .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ٥٧ .

غزوة بدر الكبرى

القافلة :

فى أوائل الخريف من السنة الثانية ، خرجت من مكة قافلة تجارية كبيرة ، تتكون من ألف بعير ، وتحمل ألواناً كثيرة من التجارة ، بلغ ثمنها أكثر من خمسين ألفاً من الدنانير ، اشترك فيها كل بطون كعب بن لؤى ، وترأس القافلة زعيم قريش حينئذ أبو سفيان بن حرب بن أمية . واشترك فى حراستها ثلاثون أو أربعون من أشدّاء الرجال ، وفى مقدّمتهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى . وكانت وجهة القافلة الشام ، حيث تعود محملة بأنفس أنواع التجارة[1] .

رأى المسلمون أن ينتهزوا هذه الفرصة، ففكروا فى الاستيلاء على هذه القافلة ، فقد اضطرهم المشركون من قريش إلى الخروج من مكة ، والبعد عن الوطن والأهل ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم ، وكان الاستيلاء على هذه القافلة لا يؤدى إلى إراقة دماء ، فحرّاس القافلة لا يزيدون على أربعين رجلاً ، وسيضطرون إلى التسليم والاستسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٧ .

خرج الرسول فى سرية إلى العشيرة لاعتّراض القافلة وهى، فى طريقها إلى الشام ، ولكن شاءت الأقدار ألا تلحق السرية بالقافلة ، فقد سبقتّها القافلة بيومين ، ولذا رأى المسلمون انتظار عودتّها من الشام ، وكلّف الرسول طلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد بترصّد أخبارها ، فنزلا فى خباء فى الروحاء التى تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين ميلاً .

قدم طلحة وسعيد إلى المدينة ، ليخبرا المسلمين بقدوم قافلة قريش من الشام ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد غادر المدينة ، إذ كان قد قرّر أن تكون القافلة قد بلغت الروحاء ، وندب الرسول المسلمين دون تفرقة بينهم ، ولبى المسلمون النداء ، وقال الرسول لهم : هذه عير قريش ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها[1] . وأرادت جماعة من الناس ، لم تكن قد اعتنقت الإسلام بعد ، أن تنضم إلى المسلمين طمعاً فى الغنيمة ، فرفض الرسول عليه الصلاة والسلام عرضهم ، إلا بعد أن يؤمنوا بالله ورسوله .

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٥ .

خروج الجيش الإسلامى :

كان الجيش الإسلامى يتألف من المهاجرين والأنصار [1] ، وصحبوا معهم سبعين بعيراً تحمل الماء والزاد ، ويتعقبها المشاة ، ولم يكن معهم سوى أربعة أفراس ، يقودونها دون أن يركبوها ، يوفرون لها سبل الراحة ، استعداداً ليوم النزال .

وكان عثمان بن عفان قد عاد ، بصحبة زوجته رقية بنت محمد ، من الحبشة ، وأراد الانضمام إلى هذه الحملة ، ولكن رقية كانت تعانى من مرض شديد ، وعلى شفا الموت ، فاضطر عثمان إلى البقاء فى المدينة .

اتخذ المسلمون الطريق الرئيسى إلى مكة ، ثم انحرفوا يساراً نحو البحر الأحمر ، حتى وصلوا إلى الوادى الذى يرويه ماء بدر ، وعسكروا قرب البئر ، التى اعتادت القوافل أن ترتاده .

لم يعد خروج الجيش الإسلامى أمراً سرياً ، فقد كان المنافقون واليهود من أهل المدينة ، يرقبون إعداد هذه الحملة

(١) روى الطبرى (جـ ٢ ص ١٣٨) أن عدد المهاجرين كان ٧٧ رجلا وأن عدد الأنصار كان ٢٣٦ أو ٣١٨ أو ٣٠٧ .

وخروجها ، ورأوا أن يقوموا بدورهم الغادر كعادتهم دائماً ، فبعثوا برسلهم إلى أبى سفيان قائد القافلة ينبئونه بأمر الحملة حتى يأخذ أهبته .

أدرك أبو سفيان خطورة الموقف ، فالقافلة تحمل أرباحاً طائلة جناها القرشيون من بيع تجارتهم فى الشام ، كما تحمل كثيراً من البضائع النفيسة ، ولا يحرس القافلة غير ثلاثين أو أربعين رجلاً . ولذا بعث برجل يدعى ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ، وفى بطن الوادى ، قطع أذنى بعيره وجدع أنفه ، وحوّل رحله ووقف هو عليه ، وقد شقّ قميصه ، وأخذ يصيح : يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها ! الغوث الغوث[1] !

الموقف فى مكة :

كان أهل مكة ينتظرون قدوم القافلة بالأرباح الطائلة ، وكانوا قد ساهموا فيها جميعاً ، ولذا كان صياح ضمضم مفاجأة كبرى لهم ، وكارثة عظمى ، فتجمعوا حوله ، وانهالوا عليه بالأسئلة ، وهو يثير حماستهم ويحضهم بعباراته ، وحركاته التمثيلية .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٣٦ – ١٣٧ .

استمع أبو جهل ، عدو الإسلام والرسول الألد ، إلى صيحات ضمضم ، فصاح بدوره بالناس عند الكعبة يستنفرهم لإنقاذ القافلة والأموال . وصف ابن هشام[١] أبا جهل بأنه كان « رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر » .

أدرك أهل مكة أن المسلمين الذين نفوهم عن ديارهم بالأمس ، قد صاروا قوة يخشون بأسها ، ويعملون لها حساباً . ولذا رأى المكيون أن يعدّوا جيشاً قويًّا يواجه خطر الجماعة الإسلامية التى ملأ الإيمان قلوبهم بالحماسة الدافقة .

غير أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ، ثم الهجرة إلى المدينة ، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه . وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكنانة بينهما ثأر فى دماء تبادل الفريقان إراقتها ، فإذا هى خفت إلى لقاء المسلمين لمنع غيرها منهم خافت بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها[٢] .

ولكن أهل مكة ، وقد قدّروا خطورة الموقف ، رأوا أن

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ٢٥٢ .

يتناسوا أحقادهم وثاراتهم القديمة ، لمواجهة الخطر الجديد ، خطر القوة الإسلامية ، ولذا تقدم مالك بن جعشم المدلجى ، من أشراف بنى كنانة ، يؤمن قريشاً ، ويؤكد لها أن كنانة لن تطعنها من الخلف ، ولن تغدر بها .

وبدأت قريش تحشد رجالها ، للدفاع عن قافلتها ، ودعت كل قادر على القتال إلى الخروج ، وإذا كان له عذر فى التخلف عليه أن يبعث برجل بدله . وكان من الذين تخلفوا أبو لهب ، الذى بعث بدله العاص بن هشام بن المغيرة ، الذى كان مديناً لأبى لهب بأربعة آلاف درهم ، وعجز عن سدادها ، فرأى أن يقاتل بدلاً عنه[1] .

وسرعان ما تكون جيش من المشركين ، ضم تسعمائة وخمسين رجلاً يقودون مائة فرس ، وسبعمائة من الإبل ، يقودهم أبو جهل . وانضمت إليهم هند زوجة أبى سفيان ، وهى امرأة شرسة قاسية ، ودعت أباها وأخاها الوليد وعمها شيبة وكثيراً من أقاربها إلى الخروج . كما خرج معهم إخوة القتيل الذى قتله عبد الله بن جحش فى وادى نخلة يريدون الأخذ بثأره .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٧ .

خرجت الحملة من قريش ، تتقدمها جماعة من الفتيات المغنيات ، ارتدين ملابسَ موشاة، وتزيّنّ بالحليّ الذهبية ، ينشدن أبياتاً من الشعر فى هجاء المسلمين ، وأبياتاً أخرى يثرن بها حماسة المشركين ، على نغمات ضربات الدفوف .

مضت حملة المشركين ، يدفعها الشيطان الذى زيّن لهم أعمالهم ، وصور لهم أنه لا غالب لهم ، وأنه نصيرهم وناصرهم ، كما قال الله تعالى : (وإذْ زيّن لهم الشيطانُ أَعْمَالَهم ، وقال لا غالِبَ لكُمُ الْيَوْمَ من النَّاسِ ، وإنِّى جارٌ لكم ، فلما تراءت الفِئَتان نكَصَ على عقِبَيْهِ ، وقال إنِّى برىءٌ مِنكُم ، إنِّى أَرى ما لا ترَوْنَ ، إنى أَخافُ الله ، والله شديد العقاب) [١] .

جند الله ورسوله :

غادر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وعهد الرسول إلى عمرو بن أم مكتوم بالصلاة بالناس ، واستعمل أبا لبابة على المدينة . وتقدّم الجيش الإسلامى ، تتصدره رايتان

---

(١) سورة الأنفال ٤٨ .

سوداوان ، وصحبوا سبعين بعيراً يتعقبونها ، وتألّف الجيش من نيف وثلمائة مسلم مؤمن[١] .

وكانت الحماسة فى المدينة جارفة حتّى إنه خرج بعض الغلمان الذين لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم . وتنافس المسلمون حول الخروج مع الرسول ، فيروى الذهبي[٢] أن خثيمة قال لابنه حين ندب الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج : آثرني بالخروج وأقم مع نسائك ، فأبى سعد ذلك وقال : لو كان غير الجنة آثرتك بها . اقترع خثيمة بينه وبين ابنه سعد على الخروج ، فخرج سهم سعد ، فأبدى الأب أسفه . واستشهد الأب والابن فى سبيل الإسلام ، فاستشهد سعد فى بدر ، واستشهد أبوه فى أحد ، فكانت الجنة لهما على السواء .

لم يكن الرسول يعلم بخروج حملة مشركى مكة ، ومضى فى طريقه نحو قافلة قريش ، وبعد أن تزود فى طريقه من ماء الروحاء ، تقدّم حتّى نزل بالصفراء ، وسأل بعض الأعراب عن أخبار قريش فلم يجد عندهم خبراً ، وتقدّم الرسول إلى وادى «ذفران» فنزل به ، وهناك علم الرسول بخروج جيش مكة.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ١٩٣ .

وبينما كان أبو جهل يقود جيش مكة ، كان أبو سفيان يتقدّم نحوه ، حتى إذا وصل إلى منطقة الخطر سبق القافلة بمسافة ، مقتصاً الآثار على الرمال ، وأخيراً عثر على آثار أقدام جيش المسلمين ، وأدرك قلة عددهم من قلة عدد نوى البلح الذى ألقى المسلمون به أثناء سيرهم .

علم أبو سفيان الطريق الذى اتبعه المسلمون، فخادعهم: وسار محاذياً شاطئ البحر الأحمر ،حتى إذا أدرك أنه قد أصبح بعيداً عن منطقة الخطر ،بعث رسولاً آخر للقاء القرشيين الذين قد يكونون قد خرجوا لنجدتهم ليخبرهم بالطريق الجديد الذى اتبعته القافلة ، وينبئهم بسلامتها فى طريقها إلى مكة .

التقى رسول أبى سفيان بالقرشيين ، حتى إذا علموا بنجاة القافلة ، عقدوا مجلساً للتشاور ، ورأى بعضهم التقدّم لقتال محمد والمسلمين ، فى حين رأى البعض الآخر العودة إلى مكة . وخلال هذه المناقشات أرسلوا كشافاً يستكشف أمر المسلمين ، وعاد يخبرهم أن عدد المسلمين نحو ثلثمائة مما أثار حماستهم للقتال ، ولكن حذّرهم البعض من القتال ، فحماس المسلمين للقتال عظيم ، فهم لا يملكون شيئاً يخشون ضياعه ، لا يملكون

سوى سيوفهم ، يحاربون بها من أجل عقيدتهم السامية ، ويبذلون أرواحهم فى سبيلها . وذكروهم أن بين المسلمين أقارب لهم .

كانت هذه الكلمات كفيلة بأن تهدّئ حماسة قريش ، ولكن تقدّم إخوة قتيل (نخلة) يثيرون حماسة القرشيين مدفوعين بتحريض من أبى جهل ، فقد وقف يخطب : « والله لا نرجع حتّى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، بمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا[١] » .

أثارت كلمات أبى جهل كبرياء قريش ، وأغراهم ما وعدهم به من ولائم وخمر وأنغام ، فاستجاب معظمهم إلى ندائه ، ومضوا فى طريقهم ، طريق الضلال . وتخلف عن القوم بنو زهرة ، وبنو عدى بن كعب[٢] .

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ .

الشورى :

علم الرسول عليه الصلاة والسلام بخروج جيش مكة ، لحماية قافلة قريش ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستشير المسلمين ، فالشورى هى من فضائل الإسلام ، وحتى يكون أمرهم شورى بينهم . وقام أبو بكر وعمر بن الخطاب فأدليا برأيهما وأحسنا . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . وأعجب الرسول بمقالة المقداد ودعا له .

وأراد الرسول أن يستمع إلى المزيد من آراء سائر المسلمين ، وخاصة الأنصار حتى تكمل الشورى . فقال : أشيروا علىّ أيها الناس . فقد كان الأنصار يمثلون عدّة الجيش الإسلامى ، وكانت بيعة العقبة معاهدة دفاعية ، وليست هجومية ، تنصّ على أن يمنعه أهل المدينة مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ،

---

(١) برك الغماد : موضع فى اليمن .

ولم يبايعوه على قتال خارج مدينتهم .

وتقدّم زعيم الأنصار ، سعد بن معاذ ، إلى الرسول سائلاً :
والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فأجاب الرسول : أجل .
فقال سعد : فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به
هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع
والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى
بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ،
ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدّونا غداً ،
إنا لصبرٌ فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا
ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

كان سعد بن معاذ يعبر عن رأى الأنصار ، وأبدى الرسول
صلى الله عليه وسلم سروره لمقالة سعد ، فقال للمسلمين : سيروا
وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله
لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم[١] .

غادر المسلمون وادى ذفران ، ومضوا حتى نزلوا قريباً من
بدر ، وهناك التقوا بشيخ عربى ، عرفوا منه خروج قريش
من مكة . وفى المساء بعث الرسول على بن أبى طالب والزبير

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر ، يلتمسون له الأخبار ، فعادوا بغلامين لقريش ، وسألوهما عن خبرهما فقالا : نحن سقاة قريش . فلم يصدقوهما ، وضربوهما ، واتهموهما أنهما من غلمان أبى سفيان ، فاضطرا للخلاص من الضرب أن يقرّا بذلك . وكان الرسول يؤدى الصلاة ، حتى إذا فرغ منها ، قال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إنهما لقريش . ثم سأل الرسول الغلامين عن أخبار قريش ، فأجابا : إنهم على مقربة من المسلمين ، فسألهما عن عدد القرشيين وعُدتهم . فقالا : لا ندرى . فسألهما : كم ينحرون فى اليوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة والألف . وسألهما الرسول عمن فيهم من أشراف قريش ، فذكرا له خمسة عشر اسماً ، فاتجه الرسول بالحديث إلى المسلمين وقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[١] .

ماء بدر :

خرج المسلمون من المدينة لمفاجأة قافلة تجارية ، لا يزيد

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٩ .

حرّاسها على الأربعين رجلاً ، ولكنهم أصبحوا الآن فى مواجهة جيش كبير عبأه المشركون فى مكة ، وقد وفروا له العدة والعتاد، فأصبحوا يفوقون المسلمين عدداً وسلاحاً ومؤناً ، ولكن المسلمين فاقوهم بإيمانهم وحماستهم ، وغيرتهم على دين الله ، والله ناصرهم ومعينهم .

رأى المسلمون أن يسبقوا المشركين فى الوصول إلى ماء بدر ، فاستحثوا السير حتى وصلوا إلى أعلى الوادى ، وكان الوادى من الحر بحيث لم يجدوا به قطرة ماء . ومن حسن الحظ أن تعوّدهم الظمأ فى صيام شهر رمضان قوّى من صبرهم . وفى الوقت الذى بلغت فيه الحرارة أشدّها ، وأرسلت الشمس شعاعها كشواظ من نار ، وكاد ينفد الصبر ، أرسل الله إليهم السحب تتوج القمم والآكام ، وتفجر الماء من الغيث المنعش، ونهل المسلمون منه وعلوا ، وحفروا حفراً صغيرة امتلأت بالماء ، فغسلوا فيها ثيابهم التى كانت تنضح عرقاً ، وتطهروا للصلاة .

أدركت رحمة الله عز وجل المسلمين، فقال الله تعالى :

(وَيُنَزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهرَكُمْ به ، ويُذهبَ عنكم رجْزَ الشيطانِ ، وليَرْبِطَ على قلوبِكُمْ ، ويثبِّتَ به

الأقدام[1]) .

ولم تقف فائدة المطر عند ذلك ، فقد كان طريق المسلمين في الوادى ليناً تغوص فيه الأقدام فلبد لهم المطر الأرض ، ولم يمنعهم من السير . فى حين كانت هذه العاصفة ضرراً على المشركين ، فقد أصابهم منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فقد كانوا فى أرض سبخة ، وكانت إبلهم تنزلق ، وتخر على الأرض ، وكانت قوائم الخيل تغوص فى الأرض . . . وساد الاضطراب ، وعمت الفوضى ، وعرقل كل ذلك من سيرهم ، وأنهك قواهم[2] .

وأدرك الحباب بن المنذر بن الجموح أهمية الماء بالنسبة للمسلمين ، فتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقترح رأياً ، وبدأ بالسؤال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فأجاب الرسول عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : يا رسول الله ،

---

(١) سورة الأنفال آية ١١ .

(٢) دينيه : محمد رسول الله ص ١٨٤ .

فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم لننزل ، ثم نغور[1] ما وراءه من القُلُب[2] ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

وكان الرسول دائماً حريصاً على الشورى ، ويرحب بالمشورة ، وهى مظهر من مظاهر ديموقراطيته العظيمة المتسعة الجوانب . ولذا أبدى الرسول إعجابه باقتراح الحباب وقال : لقد أشرت بالرأى . ووضع المسلمون هذا الاقتراح موضع التنفيذ ، وأصبح المشركون الذين كانوا قد نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، فى موقف حرج ، فقد كان عليهم أن ينازعوا المسلمين على الماء ، وقد سبقهم المسلمون إليه ، ولم يكن فى الوادى غير ماء بدر .

ثم قام سعد بن معاذ ، فتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باقتراح آخر ، فقال : يا نبىّ الله ، ألا نبنى لك عريشاً ، تكون فيه ، ونُعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدّونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام ، يا نبىّ الله ما نحن بأشدّ لك حبّاً منهم ،

---

(١) التغوير : الدفن والطمس .

(٢) القلب : الآبار .

ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك [١] .

وأبدى الرسول أيضاً إعجابه باقتراح سعد بن معاذ ، زعيم أنصار المدينة ، وأثنى عليه، ودعا له بخير ، وتمت إقامة العريش ، فقطع المسلمون غصون الأراك ، وألفوا بينها حتى صارت عريشاً ، فغطوه بأعواد الطرفاء ، وأوى الرسول وأبو بكر إليه .

وإنه ليبدو من اختلاف السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يلزم العريش طوال المعركة ، إذ ليس معنى بناء عريش له أن ينقطع القائد عن المعركة التي يحضرها ويديرها ، فبرغم ما قيل من أنهم أقاموا له عريشاً ، فقد رووا أنه كان أشد الناس بأساً ، وكان أقرب إلى العدو من كل الناس ، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف إلا لمن يزاول القتال ويغشى صفوف المحاربين [٢] .

ويبدو هذا واضحاً فى رواية للطبرى ، فقد روى أن على ابن أبى طالب قال : لما أن كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣ (العريش : شبه الخيمة) .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ٦٦ .

برسول الله ، فكان من أشدّ الناس بأساً ، وما كان منّا أحد أقرب إلى العدو منه[1] .

المواجهة :

عسكر القرشيون فى الوادى ، وقد آلمهم أن المسلمين سبقوهم إلى ماء بدر وحرموهم منه ، وبنوا عليه موضعاً ، وقفوا حوله يذودون عنه ، والماء مسألة موت أو حياة لكل جيش مقاتل .

وشاهد الرسول عليه الصلاة والسلام القرشيين عن بعد ، فتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء ، فقال : اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادّك وتكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحِنهم الغداة[2] .

كان القرشيون قد وصلوا إلى هذا المكان مجهدين متعبين ، فبدءوا يتخلصون من أوحال السبخة التى كانوا بها ، ثم ناموا ما بقى من ليلتهم ، ثم استيقظوا ، وقد شعروا بظمأ شديد ، وكانت العاصفة من السرعة بحيث لم تملأ الغدران ، أما آبار الوادى ، فقد ردمها المسلمون ، فلم يجد المشركون ماء يروى ظمأهم .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣ (أحنهم : أهلكهم) .

اشتد بالقرشيين الظمأ ، ورأوا عن كثب ذلك الحوض الذى أقامه المسلمون وقد امتلأ بالماء ، فأرادوا الانتقام من المسلمين إذ حالوا بينهم وبين ما يطفئ ظمأهم ، وتقدّم نفر من قريش يريدون اقتحام صفوف المسلمين والوصول إلى الماء ، ولكن المسلمين نجحوا فى صدّهم وقتلوهم جميعاً عدا حكيم ابن حزام الذى اعتنق الإسلام فيما بعد وحسن إسلامه [١] .

ورأى القرشيون أن يقفوا على عدد المسلمين وعُدّتهم ، فبعثوا برجل منهم يدعى عمير بن وهب الجمحى لاستطلاع أحوال المسلمين ، فعاد إليهم يقول : ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ وعاد عمر يجول ثانية بفرسه فى الوادى حول معسكر المسلمين ، ثم رجع إلى قريش يقول : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت ، يا معشر قريش ، البلايا [٢] تحمل المنايا ، نواضح [٣] يثرب تحمل الموت الناقع [٤] ، قوم ليس معهم منَعة ، ولا ملجأ

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) البلايا : جمع بلية وهى الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت .

(٣) النواضح : الإبل التى يستقى عليها الماء .

(٤) الناقع : الثابت البالغ فى الإفناء .

إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجلٌ منهم ، حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروْا رأيكم[١] !

وكان حكيم بن حزام قد جرّب حظه ، وحاول الوصول إلى ماء بدر ، ونجا وحده من المصير الذى لاقاه غيره من القرشيين ، ولذا فقد اتجه إلى عتبة بن ربيعة ، وكان من سادة قريش ، فقال له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ فسأله عتبة : وما ذلك ، وما ذاك يا حكيم ؟ فأجاب حكيم : ترجع بالناس .

واقتنع عتبة برأى حكيم ، فوقف فى قريش خطيباً يقول : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنْعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوا فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٥ .

لم يكن عتبة يخشى معارضة أحد من زعماء قريش ، غير أبي جهل بن هشام ، ولذا بعث بحكيم بن حزام إليه ، لينقل له رأيه ، واستشاط أبو جهل غضباً ، وسخط على عتبة وقال عنه : انتفخ والله سحره[1] ، حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ! ! ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى يشكو إليه عتبة ويقول : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك[2] ، ومقتل أخيك . فصاح عامر : وا عمراه ! واعمراه ! ! . وقضت هذه الصيحة على دعوة عتبة بالرجوع ، وأصبح القتال حقيقة واقعة لا مفرّ منها[3] .

المعركة :

تقدّم المشركون نحو المسلمين ، واصطف الفريقان وجهاً لوجه . وبدأ القتال بمحاولة حمقاء من الأسود بن عبد الأسد المخزومى ، وقد اشتهر بين قومه بسوء الخلق والطباع ، فقد دفعه

---

(١) انتفاخ السحر : كناية عن الجبن .
(٢) أى اطلب من قريش الوفاء بعهدهم .
(٣) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤٧ .

تهوّره وحمقه إلى الاندفاع من صفوف المشركين إلى صفوف المسلمين ، يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون ، فضربه حمزة بن عبد المطلب بسيفه ضربة أطاحت بساقه ، فوقع على ظهره ، ولكن الأسود حاول الوصول إلى الحوض ، فعاجله حمزة بضربة أخرى من سيفه أودت بحياته جزاء حمقه وكفره .

وكانت هذه الدماء كفيلة بإشعال نيران الحرب ، التى بدأت بالمبارزة الفردية . وتقدم ثلاثة من المشركين ، تجمعهم القرابة ، فى الدماء ، وفى الكفر ، وهم عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد . وخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ، ولكن المشركين رفضوا مبارزتهم ، ودعوا الرسول إلى أن يبعث إليهم بثلاثة من قريش ، فخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وكلهم من بنى عبد المطلب ، فسألهم المشركون عن أسمائهم ، حتى إذا علموا بأسمائهم قالوا : هم أكفاء كرام ! وبارز حمزة شيبة فأطاح به ، وبارز علىّ الوليد فأرداه قتيلاً . وبارز عبيدة ، وكان أسنّ القوم ، عتبة فاختلف بينهما ضربتين ، وأصيب كل منهما بجراح ، وكرّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فقتلاه ، وعادا بعبيدة الجريح إلى صفوف المسلمين .

انتقلت المعركة من المبارزة الفردية ، إلى الالتحام ، والقتال الجماعى . ورأى المسلمون أن يتخذوا موقف الدفاع لقلة عددهم ، واستفادوا من وجودهم فوق منطقة مرتفعة ، فأصلوا المشركين وابلاً من سهامهم ، غير عابئين بما يشعرون به من عطش .

الرسول القائد :

قاد الرسول صلى الله عليه وسلم المعركة ببسالة وحذق ليس له مثيل ، فأخذ عليه الصلاة والسلام يعدّل جيشه كتفاً بكتف ، فى صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص ، وأمر المسلمين ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل . ومرّ الرسول بين صفوف المسلمين وفى يده قدح (أى سهم) يعدّل به القوم[1] .

عدّل الرسول الصفوف ، وأمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، ثم رجع إلى العريش فى رفقة صديقه الأمين أبى بكر . ووقف على باب العريش سعد بن معاذ ممتشقاً سيفه .

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يؤخروا قذف

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٨ .

السهام من الأقواس على جيوش الأعداء حتى يقتربوا منهم ، لتكون الإصابات مسددة مركزة ، وهو نفس المبدأ الذى تستخدمه الجيوش الحديثة عند إطلاق النيران ، ويعرف باسم « كبت النيران » أى حتى يصل العدو إلى متناول الرمى لتصيب كل رمية مقتلا(١) !

ثم إن مقابلة العدو بوابل منهمر من السهام من مسافة قريبة يروّع العدو ترويعاً شديداً ، ويكسر روحه المعنوى ويجعل خسائره كبيرة فادحة ، بينما يطيش الضرب على المسافات البعيدة ويكشف مواقع الرماة .

أما السلاح الأبيض فهو بطبيعة الحال سلاح القتال وجهاً لوجه ، ولا يلجأ إليه المقاتلون إلا إذا التحمت صفوفهم وتداخلت جموعهم ، وحينئذ يكف الرماة عن قذف سهامهم ، بينما يحمى وطيس القتال المتلاحم والخناجر والسيوف . وهذا المبدأ الحربى — الذى ما زال إلى اليوم — هو الذى عناه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم »(٢) .

نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعدتهم ونظر

---

(١) جمال حماد : غزوة بدر ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

إلى أصحابه الذين كانوا نيفاً وثلثمائة، ثم استقبل القبلة فجعل يدعو الله عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى الأرض» .

واستمر الرسول الكريم فى دعائه ، حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر الرداء ووضعه على الرسول . ثم التزمه من ورائه وقال : كفاك يا نبىّ الله ، بأبى أنت وأمى مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تبارك وتعالى : (إذ تَسْتَغِيثُونَ ربّكُم فاستجابَ لكُمْ أنِّى مُمِدُّكُمْ بألْفٍ من الملائكَةِ مُرْدِفين)[1] .

خفق[2] الرسول خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع[3] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) خفق : أى نام نوماً يسيراً .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٩ (النقع : الغبار) .

نصر من الله :

حمى الوطيس ، وبدأ المشركون الرمى بالسهام ، فأصاب سهم منها مهجع ، مولى عمر بن الخطاب ، فقتله ، فكان أول شهيد من المسلمين . ثم أصاب سهم حارثة بن سراقة ، من بنى النجار ، وهو يشرب من الحوض ، فقتله أيضاً .

وخرج الرسول إلى المسلمين ، ينفخ فيهم من روحه العظيمة الفياضة ، فيحوّل قلتهم إلى كثرة ، وهو يقول : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . ثم أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه . ثم قال لأصحابه : شدّوا[1] !

انقض المسلمون كإعصار هائل على المشركين ، وكان للاصطدام ضجيج قد بلغ عنان السماء ، وكانت قعقعة السلاح ، وصراخ اليائسين من المشركين ، وصياح المنتصرين من المسلمين ، كان كل ذلك يردّده الصدى من جوانب الوادى ، ويرافقه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٠ .

دويّ غريب ، متقطع كضرب الطبول المضطربة[١] .

كان تحريض الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين على القتال ، يزيدهم حماسة على حماس ، بحيث يصبحون قادرين على أن يغلبوا من هم أضعافهم عددًا ، كما جاء فى كتاب الله العزيز : (يـأيها النبيُّ حرّض المؤمنينَ على القِتَال إن يكن منكم عِشْرون صابرون يغلبُوا مائتين ، وإن يكُنْ منكم مائةٌ يغْلِبُوا ألفاً من الذين كفروا بأنَّهُمْ قَوم لا يَفْقَهُون . الآن خفَّفَ الله عنكم وعلم أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفا ، فإنْ يَكُنْ منكم مائَةٌ صَابرَةٌ يغْلِبُوا مائَتَيْنِ وإنْ يَكُنْ منكم ألفٌ يغلبُوا ألفَيْنِ بإذْنِ الله والله مع الصَّابرين)[٢] .

وجه المسلمون اهتمامهم إلى وجوه قريش من المشركين ، وهم الذين اضطهدوا المسلمين فى أول الدعوة الإسلامية وعذّبوهم ، وما لبثوا أن اضطروا المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة . ولمح بلال بن رباح ، مؤذن الرسول ، أمية بن خلف

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٨٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآيتان ٦٥ و ٦٦ .

وابنه ، وكان أمية هذا قد أنزل ببلال ألواناً من العذاب. فكان يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ليرغمه على التحول عن الإسلام فيزداد بلال تمسكاً بالإيمان ويصيح : أحد أحد .

رأى بلال أمية ، فصاح : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجا ! وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله اكتفاء بأسره ، ولكن بلالاً عاود الصياح : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجا ! ولم يهدأ بال بلال حتى لقى أمية حتفه . ومن وجوه قريش الذين سقطوا فى المعركة صرعى ، أبو جهل بن هشام[١] ، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح[٢] ، ومنهم أيضاً عبيدة ابن سعيد بن العاص ، وقد قتله الزبير بن العوام[٣] .

أعان الله عز وجل المسلمين فى بدر بالملائكة ، وقد منّ الله على المسلمين بذلك فقال فى كتابه العزيز : (ولقد نصركُمُ اللهُ ببَدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلّكُم تشكُرون .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٠ .

إذْ تقول للمؤْمِنِين أَلَنْ يكفيكُمْ أَن يمِدَّكم ربكم بثلاثةِ آلاف من الملائكة مُنْزَلين. بلى إنْ تَصْبروا وتتقوا ويأْتوكم من فورهمْ هذا يمدِدْكُم ربكُم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مسوّمين . وما جعله الله إلاَّ بُشْرَى لكم ولتطمَئن قلوبكم به وما النصر إلاَّ من عندِ الله العزِيزِ الحكيم)[1] .

روى ابن هشام فى سيرته عن ابن عباس أنه قال : « حدثنى رجل من بنى غفار ، قال : أقبلت أنا وابن عم لى حتّى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة[2] ، فننتهب مع مَنْ ينتهب . فبينا نحن فى الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم[3] ، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه ، فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت».
وروى ابن هشام أيضاً عن رجل ممن شهد بدراً أنه قال: « إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل

---

(١) آل عمران : ١٢٣–١٢٦ .

(٢) الدبرة : الدائرة .

(٣) حيزوم : اسم فرس جبريل عليه السلام .

أن يصل إليه سيفي ، فعرفتُ أنه قد قتله غيري » . كما روى ابن هشام أيضاً عن عبد الله بن عباس أنه قال : « كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها على ظهورهم » ، وقال علي بن أبي طالب : « العمائم تيجان العرب ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرخوها على ظهورهم ، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء »[١] .

قال الله تعالى: (إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكةِ أنِّي معَكُمْ فثَبِّتوا الذين آمَنُوا سأُلْقِي في قلوب الَّذِين كفَرُوا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْقَ الأَعْنَاق واضْرِبُوا منهم كلَّ بنان)[٢] وقال الله عز وجل أيضاً : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رَمَيت إذ رمَيت ولكن الله رَمَى)[٣] .

علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قد أنجز وعده وكتب للمسلمين النصر على أعدائهم المشركين ، فعاد إلى العريش . وولى القرشيون الأدبار ، والمسلمون يتبعونهم ،

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ١٢ .
(٣) سورة الأنفال آية ١٧ .

ويأسرون منهم من عجز عن الفرار . أما من وصل إلى مكة سالماً، فقد توارى عن الأنظار، لما كان يشعر به من خزى وعار.

بعد الانتصار :

انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، انتصاراً باهراً ، وبهزيمة المشركين هزيمة ساحقة . وأقام المسلمون فى بدر حتى آخر النهار ، ثم جمعوا قتلى المشركين ، وحفروا قليباً ، أى حفرة كبيرة ، ودفنوهم فيها ، وهالوا عليهم التراب والحجارة . ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : يأهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً . فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتكلم قوماً موتى؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق[1].

أنشد حسان بن ثابت أبياتاً من الشعر منها :

ينـــاديهم رســـول الله لما	قذفناهم كباكب فى القليب
ألم تجـــدوا كلامى كان حقاً	وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقـــالوا	صدقتَ وكنتَ ذا رأىٍ مصيب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٢ .

قتل فى معركة بدر سبعون من المشركين ، ومنهم الذين تعاهدوا على قتل الرسول فى مكة (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم). وكان من هؤلاء القتلى أربعة وعشرون من أشراف قريش ، أمثال عتبة ، والوليد ، وشيبة ، وأمية بن خلف ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل قائد الحملة .

طلب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلتمسوا أبا جهل فى القتلى ، وخرج عبد الله بن مسعود يبحث عنه ، فوجده فى الرمق الأخير ، فوضع ابن مسعود رجله على عنقه ، وكان أبو جهل قد ألحق بابن مسعود كثيراً من الأذى وهو بمكة ، فقال أبو جهل : لقد ارتقيت يا رُويعى الغنم مرتقى صعباً ! فاحتز ابن مسعود رأس أبي جهل ، وحمله إلى الرسول ، وقال ابن مسعود : هذا رأس عدوّ الله أبي جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله الذى لا إله غيره . وحمد الرسول الله عز وجل[١] .

نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فرآه مكتئباً ، فسأله : يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء. فقال أبو حذيفة : لا والله يا نبيّ الله ما شككت

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٥٥ .

فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنتُ أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنتُ أرجو له أحزننى . فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له بالخير[١] .

الغنائم :

وفى الصباح التالى ، بدأ المسلمون يبحثون أمر توزيع الغنائم ، واختلف الرأى ، فقال من جمع الغنائم : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ما أنتم بأحق به منا ، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرة العدو ، فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا[٢] .

ونزلت آيات كريمة حسمت الأمر ، إذ قال الله عز وجل:

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥ .

(واعلموا أنما غنِمتْم من شىءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرَّسُولِ ولِذِى الْقُرْبى واليَتَامَى والمساكين وابْنِ السَّبيل إن كُنْتُم آمَنْتم بـالله وما أَنزلْنَا على عبْدنا يوم الفُرْقان يوم التقى الجمْعَانِ واللهُ على كلِّ شىءٍ قدير)[1] .

روى ابن هشام أن عبادة بن الصامت سئل عن الأنفال ، فقال : فينا أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسوله ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء[2].

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٦ .

أول انتصار للرسول على قريش (رمضان ٢ هـ)

أفراح المدينة :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسولين إلى المدينة يحملان بشرى انتصار المسلمين فى غزوة بدر الكبرى ، وهما زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، فقصد كل منهما ناحية من نواحى المدينة ، وبشر الأنصار بانتصار المسلمين على المشركين ، وعدّد من لقى حتفه من مشركى قريش ، وكان زيد ممتطياً القصواء ، وهى ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام . وغادر المسلمون دورهم ، حيث التقوا وكل يهنئ الآخر بنصر الله للمؤمنين .

وعلى قدر فرحة المسلمين بالمدينة ، كانت خيبة أمل المنافقين ويهود المدينة ، الذين آلمهم هذا الانتصار الباهر الذى حازه الرسول والمسلمون ، وحاولوا أن يشككوا أهل المدينة فى أخبار هذا الانتصار ولكن عودة الرسول مع المسلمين بعد يوم من وصول رسوليه ، لم يترك أىّ مجال للشاك، وقضى على مزاعم المنافقين واليهود . عبر أحد زعماء اليهود عن ألمهم لانتصار المسلمين فقال : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن

أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن !

صوّر الطبرى[1] موقف اليهود من الرسول بعد انتصار بدر، فقال : « ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منصرفه من بدر ، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحداً ، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه. فلما قَتَل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل ببدر من مشركى قريش ، أظهروا له الحسد والبغض ، وقالوا : لم يلق محمد من يحسنُ القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد . وأظهروا نقض العهد » .

الأسرى :

قدم الرسول صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، والنفل الذى أصيب فى المعركة . حتى إذا وصل إلى الروحاء خرج المسلمون ليلقوه ويهنئوه بما فتح الله عليه ، هو ومن معه من المسلمين . قال سلمة بن سلمة لمن تقدم يهنئونه بالنصر : ما الذى تهنئون به ؟ فوالله إن لقينا

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٢ .

إلا عجائز صلفاً كالبُدْن المعلقة ، فنحرناها . فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : أى ابن أخى ، أولئك الملأ[١] .

فرّق الرسول عليه الصلاة والسلام الأسارى فى أصحابه ، وقال لهم : استوصوا بالأسارى خيراً [٢] . وكان العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، من بين هؤلاء الأسرى ، وكان قد بقى فترة فى مكة للتجارة ، ثم لحق بالقافلة ، ووقع فى الأسر ، إذ أسره أنصارى ، رغم بأس العباس وضخامة جسمه ، وأبدى العباس ضيقه بالحبال التى كانت تشدّ يديه إلى جسمه ، ورأى أحد المسلمين أن يكرم الرسول فى شخص عمه ، فخفّف شيئاً من قيوده . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فرأى ألا يميز العباس عن غيره من الأسرى ، فأمر بتخفيف قيود جميع الأسرى ، فضرب الرسول بذلك مثلاً جديداً من أمثلة العدل .

تشاور المسلمون حول ما يفعلون بالأسرى ، فرأى أبو بكر أن تقبل فديتهم ، لما بين الغالبين والمغلوبين من أواصر القرابة . وكان المشركون قد التمسوا من أبى بكر أن يكون شفيعاً لهم عند الرسول ، فبعثوا إليه من قالوا له : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٧ (الملأ : الأشراف والرؤساء) .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٩ .

والإخوان والعمومة وبنى العم ، وأبعدنا قريب ، كلّم صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا . فوعدهم أبو بكر خيراً ، وخرج إلى الرسول يشفع فيهم ، ويرجوه أن يمنّ عليهم . واتجه رسل المشركين إلى عمر بن الخطاب يقولون له مقالتهم لأبى بكر ، فلم يجبهم إلى طلبهم ، وخرج إلى الرسول يقترح عليه ضرب رقابهم . ولم يجب الرسول ، وتناوب أبو بكر وعمر الحديث ، كل منهما يؤيد رأيه ويحاول إقناع الرسول به ، واختلف المسلمون الحاضرون فى الرأى ، بين مؤيدين لرأى أبى بكر ، ومؤيدين لرأى عمر ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ برأى أبى بكر ، الذى يدعو إلى الرفق والرحمة ، فأتاح الرسول بذلك الفرصة لكثير من الأسرى ليعيشوا ، وقد اعتنق كثير منهم الإسلام ، وكان من أصلابهم ذرية من المسلمين الصالحين [١] .

أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالأسرى ، فكان إذا دفع بأسير إلى أحد المسلمين قال له : « أحسن إليه » . كما قال الرسول أيضاً : « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » . ونفذ المسلمون وصايا الرسول الكريم ، حتى كانوا يؤثرونهم على

---

(١) ابن قيم الجوزيه : زاد الميعاد جـ ٢ ص ٦٧ .

أنفسهم بالخبز ويكتفون بالتمر[١] .

وتمّ فداء الأسرى ، فمن كان عنده مال فدى به ، ومن لم يكن عنده مال ، أو كان عنده ، وهو يعرف القراءة والكتابة ، فقد كان فداؤه أن يعلّم عشرة من صبيان المدينة .. ومن لم يكن عنده مال ، ويجهل القراءة والكتابة ، فقد منّ الرسول عليه بإطلاق سراحه وسمح له بالعودة إلى مكة .

كان اشتغال أهل مكة بالتجارة ، عاملاً على إتقانهم القراءة والكتابة والحساب ، بينما كان أهل المدينة يعملون بفلاحة الأرض . وكانت هذه أول مرّة فى التاريخ ، يصبح فيه تعليم القراءة والكتابة من غنائم الحروب . ويبدو فى هذه السياسة تقدير الرسول للعلم والتعليم .

جعل الرسول عليه الصلاة والسلام العلم مساوياً للحرية ، واشترى الأسير حريته بمساهمته فى محو الأمية . وقد مضى الإسلام فى تحقيق هذه المعادلة ، مؤكداً اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان ما يتساوى مع درجة علمه وفقهه[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ١٤٩ .

أحزان مكة :

رأينا ما شهدته المدينة من أفراح واحتفال بالنصر العظيم ، وسنرى الآن صورة مغايرة ، ترسم ما ساد مكة من وجوم وأحزان وأتراح .

ظن أهل مكة أن قافلتهم الكبرى ، التى سببت لهم الكثير من القلق ، عائدة ، فأعدّوا العدة لاستقبالها فى أعراس وأفراح ، ولكنهم رأوا فلول جندهم مقبلين ، فلم يصدّقوا فى أوّل الأمر هذه الخسارة العظيمة ، لشدّة إيمانهم بتفوق جندهم فى العدد والعدّة ، فلاقوا الهاربين من الجند أسوء لقاء ظنّا منهم أنهم بعض الخونة وقد فرّوا من المعركة قبل انتهائها ، ولكن جاء النبأ اليقين بعد قليل ، وانكشف الشك عن أعداء الله عن يأس عميق[1] .

كان أبو لهب قد تخلّف عن القتال ، وبعث بدلاً عنه العاص بن هشام بن المغيرة .وقدمت عليه فلول قريش الهاربة ، واجمة خائفة ، تقص عليه أنباء انتصارات المسلمين ، وهزيمة المشركين ، فهاله الأمر ، حتى إنه لم يصدّق مقالتهم ، حتى

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٩٧ .

إذا علم بقدوم أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هبّ من مجلسه وقصده وسأله عن حقيقة الأخبار التي تواترت إليه ، فقال أبو سفيان : لا شيء ، والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، ما تبقي شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ! وتقدم مولى للعباس ابن عبد المطلب ، يدعى أبا رافع ، يقول : تلك الملائكة ! فانهال أبو لهب عليه ضرباً وأصابه بجراح . وغضبت زوجة العباس لما نال مولاها ، فأخذت بيدها عموداً من عُمد الحجرة فضربت أبا لهب به فشجت رأسه « فقام مولياً ذليلاً » . وما لبث أن أصابه الله بمرض خطير ، ففسد دمه ، وامتلأ جسمه بالقروح ومات بعد سبعة أيام ، وابتعد الناس عنه خوفاً من العدوى ، وتركه أبناؤه ثلاثة أيام دون أن يدفنوه ، حتى تعفنت جثته ، ولم يدفنونه إلا بعد إلحاح من بعض الناس[١] .

وهكذا كانت نهاية عدو الله ، وعدو الإسلام ، وعدو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعدو المسلمين . وهو من

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٦٠ .

نزلت فيه سورة المسد : (تبّت يدا أَبى لهب وتبّ . ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَب . سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لهبٍ . وامْرَأَتُه حمّالةَ الْحَطَبِ . فى جِيدِهَا حبلٌ من مسدٍ) .

أثار انتصار المسلمين فى بدر دهشة القرشيين فى مكة وحنقهم ، فقد أثار غيظهم أن رأوا أن ذلك الرجل الذى أخرجوه من مكة قد أصبح على جانب كبير من القوة ، كما قتل عدداً كبيراً من أكثر رجالهم شجاعة ، وأسر عدداً آخر ما زالوا ينتظرون افتداءهم[١] .

وكان وقع هزيمة قريش فى بدر شديداً على أبى سفيان ، زعيم مكة ، فتما أحنقه وأثار غيظه انتصار محمد والمسلمين ، واستقبلته زوجته هند بعاصفة من النواح والعويل ، حزناً على أبيها وعمها وأخيها ، وصارت تولول ليلاً ونهاراً وهى تعلن أنها ستأخذ بالثأر من حمزة وعلىّ .

تألم أبو سفيان لمصرع ابنه حنظلة ، وشعر بالخزى والعار ، وحاول منع الناس من النواح والبكاء على قتلاهم ، حتى يمنع روح اليأس التى سادت مكة ، ولا يثير شماتة المسلمين ، ودعا

---

(١) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٥٣ .

الناس إلى الاستعداد للثأر ، وأقسم أن يحرم نفسه من النساء والطيب حتى يثأر لابنه وقتلى المشركين .

روى ابن هشام[١] أن قريشاً ناحت على قتلاها ، فنهاهم زعماء مكة ، وقالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه ، فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم[٢] ، لا يأرب[٣] عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

عوامل الانتصار :

كانت وقعة بدر فى ١٧ ــ ١٨ رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقد وافقت ١٥ ــ ١٦ مارس سنة ٦٢٤ م ، فهى معركة الربيع ، ربيع الإسلام وبداية انتعاشه بقوة السيف . وقعت المعركة صباح الجمعة ، بعد أن قضى الجيشان ليلة متقابلين ، ليلة قضاها المسلمون فى نوم عميق ، فأصبحوا فى نشاط وصحوة ، وقضاها المكيون فى سهر وأرق سببهما الخوف ، فنهضوا كما ينهض السهران . وأمطرت السماء قليلاً ، فأفاد المطر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) تستأنوا بهم : أن تؤخروا فداءهم .

(٣) لا يأرب : لا يشتد .

جيش المسلمين ، وأضرّ بجيش المشركين ، وقد يكون قليل من المطر مقدّمة الهزيمة كما حدث فى موقعة (واترلو) حيث تعطلت المدفعية الفرنسية عن الحركة[1] .

وانتصر المسلمون ، إذ امتلأت قلوبهم إيماناً ، وزخرت نفوسهم بالحماس . واستمدّ المسلمون قوة روحهم من الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد سرت من نفسه القوية ، أمدّها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوة ضاعفت عزمهم ، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال . وازداد المسلمون قوة بتحميس الرسول لهم ، ووقوفه بينهم ، والصيحة بهم أن الجنة لمن استبسل فى القتال . وأنزل الله عز وجل ملائكته ، يثبتون قلوب المؤمنين ، ويلقون الذعر فى قلوب المشركين ، فكان النصر لجند الله والإسلام .

وشتان بين موقف صحابة الرسول منه قبل معركة بدر ، وموقف بنى إسرائيل من موسى عليه السلام حينما طلب منهم أن يجدوا ليدخلوا أرض الحيثيين . وفى ذلك يقول الله تعالى : (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك

---

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٧٨٨ .

فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)[١] .

فشتان بين إيمان صحابة الرسول وحرصهم على الجهاد فى سبيل الله ودينه ، وبين تخاذل بنى إسرائيل وعصيانهم لنبيهم .

وكان انتصار بدر دليلاً على مهارة الرسول فى القيادة ، وحذقه بفنون الحرب ، وقدرته على إدارة المواقع ، وتقديره قوّته وقوّة الأعداء ، ومعرفته ما يجب على القائد من الاحتماء والابتعاد عن موقع الخطر ، ليستمر فى إصدار الأوامر ، وفى الوقت نفسه قربه من جنده لتشجيعهم وتقوية قلوبهم وشدّ أزرهم .

أظهر الرسول عليه الصلاة والسلام فطنة خارقة ، وصفات عليا ، تفوّق فيها على جميع قادة الجيوش فى جميع العصور ، فإنه تمكن بفئة قليلة مؤمنة من قهر فئة أكبر منها ثلاث مرات ، وتمكن بفرسين وبضع إبل من التغلب على قوّة فيها مائتا جواد ومئات الإبل . واستطاع الرسول بجماعة قليلة متواضعة الموارد ، أن يقهر جيشاً ألفيًّا مكوناً من أغنياء قريش وسادتها ، وقد تسلحوا تسلحاً كاملاً .

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤-٢٦ .

وثبت من موقعة بدر أن الفئة القليلة الثابتة المستهينة بالحياة المادية ، طمعاً فى الجهاد فى سبيل الله وما تعتقد حقاً ، تغلب حتماً الفئة الكبيرة التى تفتقد إلى الإيمان ويدفعها حب المادية إلى القتال فى سبيل المال والشهوات[١] .

آثار انتصار بدر :

قبل بدر ، جمع الرسول عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار ليستشيرهم فى قتال قريش ، فاتفقت كلمتهم على أن يقفوا صفاً واحداً أمام قريش ، وبذلك انقلب ما بين المهاجرين والأنصار من معاهدة دفاعية إلى معاهدة دفاعية هجومية ، فتساووا جميعاً فى هذه المعاهدة ، ووفى كل منهما للآخر ، فى هذه الحرب وما بعدها ؛ وامتد هذا الحلف إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما بعده من العهود الإسلامية المختلفة ، فقد أصبحوا جميعاً جماعة إسلامية واحدة ، يربطها الإسلام والمصير الواحد .

أسفرت وقعة بدر عن انتصار المسلمين على قريش ، التى أسر منها سبعون كما قتل سبعون من رجالاتها . أما المسلمون

---

(١) ثورة الإسلام ص ٨٧٦ .

فقد استشهد منهم أربعة عشر ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار [١] . واستفاد المسلمون من هذا الانتصار فائدتين : إحداهما معنوية ، إذ أدرك المسلمون أنهم على حق فنصرهم الله ، وأن المشركين على ضلال فخذلهم المولى عز وجل . وثانيتهما مادية ، فقد حاز المسلمون كثيراً من الغنائم [٢] .

كان لغزوة بدر أثرها الكبير فى تاريخ الإسلام ، فقد كانت أوّل صدام جدّى بين المسلمين وقريش ، انتصر فيه المسلمون على الكفار ، وتجلّى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم فى نصرة دينهم ، وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين .

وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فى تلك الغزوة أن سمّوها غزوة الفرقان ، حيث فرّق الله سبحانه وتعالى بها بين الحقّ والباطل ، وأعزّ الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم ، مع قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين ، كما سمّى المسلمون كل من شهد بدراً منهم بدريًّا ، وكانوا يعتزون بهذه

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠١ .

التسمية ويفخرون[١] .

تحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[٢] عن نتائج موقعة بدر ، فقال : غيرت موقعة بدر وضع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، تماماً ، فقد أصبح القائد المظفر لجماعة تزداد قوة يوماً بعد يوم . وسرعان ما تحول كثير من القبائل العربية الوثنية إلى الإسلام . أصبح محمد الآن حاكماً للمدينة ، كما أصبح رئيساً للجماعة الإسلامية ، وكان من أهم المشكلات التى واجهها الرسول تحديد موقفه من اليهود ، فلم تثمر معاملة محمد الطيبة لليهود ، فقد ظلوا غير مؤمنين بالإسلام ، كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء . ونظمت أسماء بنت مروان الشاعرة اليهودية كثيراً من القصائد فى هجاء الرسول ، كما أنشد الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف عدّة قصائد فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم فى تلك المعركة ، بل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته إلى المدينة ، وفى حضور بعض المسلمين ، فلم يعد الرسول يستطيع أن يستمر فى مهادنة اليهود بعد أن كشفوا عداءهم للإسلام والمسلمين .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٠٩ .

(٢) أرفنج : حياة محمد ص ١٥٧ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

طارت أنباء انتصارات بدر فاجتازت البحر الأحمر حتى وصلت إلى المسلمين الذين كانوا لا يزالون مقيمين فى أراضى الحبشة . وغضبت قريش لانتصار المسلمين فى بدر ، وأرادت الانتقام من هؤلاء المهاجرين المسلمين بالحبشة ، فأرسلت عمرو ابن العاص يحمل الهدايا الفاخرة إلى نجاشى الحبشة ، ويطلب منه تسليم المهاجرين المسلمين ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يقدم فيها عمرو إلى الحبشة ، وكان قدومه فى المرّة الأولى بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة بعد أن اشتد إيذاء مشركى قريش .

قدم رسول النبى عمرو بن أمية الضمرى إلى الحبشة قبل وصول وفد قريش ، مما أثار حنق عمرو بن العاص . واستأذن عمرو فى لقاء النجاشى ، فأذن له ، فقدّم له هدايا قريش ثم سأله أن يسلم إليه مبعوث النبى وبقية المهاجرين المسلمين لينتقم منهم ثأراً لهزيمة قريش فى بدر . فرفض النجاشى ، بل ضرب أنف عمرو حتى أسال دمه ، وعنفه ولامه ، وعاد وفد قريش يجر أذيال الخيبة .

وفى مكة ، ازداد عداء قريش للمسلمين ، بعد أن لمسوا ازدياد قوة المسلمين وأخذت هند ، زوجة أبى سفيان زعيم مكة ،

تحرّضه على التعجيل بالانتقام ، والثأر لمقتل أبيها وأخيها . كما طالب عكرمة بن أبى جهل بثأر أبيه ، وقد استمر على ما كان أبوه عليه من عداء للرسول . وفى السنة الثالثة من الهجرة ، وهى السنة الثالثة لانتصار بدر ، خرج أبو سفيان على رأس ثلاثة آلاف رجل ، معظمهم من القرشيين ، وبعضهم من قبائل كنانة وتهامة ، فكانت معركة أحد .

وفى المدينة ، كان المسلمون ينعمون بانتصارهم ، ويشكرون الله عز وجل على نصره وتأييده لهم ، إذ حوّل ضعفهم وقلتهم إلى قوة وكثرة ، كما قال الله تعالى : (ولقد نصركُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأنْتُمْ أذلَّةٌ فاتقوا الله لعلكُمْ تشْكُرُون)[1].

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

رمضان شهر الجهاد فى حياة الرسول

الاستعداد لغزوة أحُد فى رمضان ٣ هـ :

بدأت غزوة أحد بعد انقضاء شهر رمضان المعظم بسبعة أيام ، إذ بدأت فى اليوم السابع من شهر شوال فى السنة الثالثة من الهجرة[1] . وشهد رمضان تعبئة المشركين فى مكة وجهودهم لقتال المسلمين ، وتكوين جيش كثيف ، واستنهاض بعض القبائل . كما شهد هذا الشهر المعظم استعدادات المسلمين لصدّ العدوان .

فقد رأت قريش أن تثأر لقتلاها ، ولكرامتها ونخوتها . كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون قد قطعوا على قريش ، منذ موقعة بدر ، طرق قوافلها إلى الشام ، فلم تعد القوافل المكية تجرؤ على ارتياد هذه الطرق ، وكانت قبيلة قريش قبيلة تجارية تعتمد تماماً على التجارة كمورد لدخلها ، وما تنعم به من ترف ورفاهية .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٨٨ .

وكانت قريش منذ عاد أبو سفيان بالقافلة يوم بدر ، قد أوقفها عند دار الندوة ، واتفق زعماء قريش على أن تُباع العير وأن تُعزل أرباحها وأن يُجهز بها جيشٌ لقتال المسلمين ، وأن تستنفر قريش سائر القبائل للانضمام إليها. وقدم إلى مكة كثير من البدو الأعراب للاشتراك فى الحملة ، طمعاً فى الغنائم . قال الله تعالى: (إن الَّذِينَ كفَرُوا يُنْفِقُون أَمْوالهُمْ ليصدّوا عن سبيل الله فسيُنْفِقُونَهَا ثم تكُونُ عليهم حَسْرَةً ثم يُغْلَبُونَ والَّذِين كفرُوا إلى جهَنَّم يُحْشَرُونَ) (١) .

وأرادت نسوة من قريش أن يتقدمن مع الجيش ، وتشاور القرشيون فى خروجهن ، وحبذ البعض الفكرة لإثارة الحماس فى قلوب المشركين ، واعترض البعض حتى لا يعرضوا حريمهم لأعدائهم . وحسم الأمر صيحات من هند زوج أبى سفيان جعلت المعترضين يكفون عن معارضتهم وسرعان ما تكوّن موكب نسائى للعويل والنواح .

غادر جيش المشركين مكة ، وتألف من ثلاثة ألوية عُقدت

---

(١) الأنفال : ٣٦ .

فى دار الندوة ، وبلغ عددهم جميعاً ثلاثة آلاف ، ليس بينهم غير مائة رجل من ثقيف ، وسائرهم من مكة ، ساداتها ومواليها وأحابيشها ، من بينهم سبعمائة دارع ، وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير ، وصحبوا معهم كثيراً من المؤن والأسلحة والعتاد .

دعا جبير بن مطعم غلاماً له يقال له وحشى ، وكان حبشياً يجيد استعمال الحربة ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت عم محمد — حمزة — بعمى طعيمة بن عدى ، فأنت عتيق[1] !

تقدم جيش قريش نحو المدينة ، وبلغ الأبواء ، حيث قبر آمنة بنت وهب ، أم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأراد بعض الحمقى المتهورين نبش القبر ، ولكن صدهم بعض القرشيين .

ثم بدأت المعركة الحربية فى يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال ، عند جبل أحد ، ويحاول بعض المؤرخين ، وخاصة من المستشرقين ، أن يصوروا نتيجة غزوة أحد بأنها هزيمة للمسلمين . ولكننا لا نرى رأيهم ، فقد كانت المعركة من

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٢٤ ، الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٣ .

جولتين ، انتصر المسلمون فى الجولة الأولى ، أما فى الجولة الثانية فقد خالف بعض المسلمين أوامر الرسول ، وانشغل رماة المسلمين فى جمع الغنائم التى تركتها فلول قريش الهاربة ، فانتهز خالد ابن الوليد فرصة خلوّ جبل أحد من الرماة وهاجم المسلمين من الخلف ، مما أدى إلى مقتل بعض المسلمين ، وإصابة الرسول عليه الصلاة والسلام ببعض الجراح [١] . واستفاد المسلمون من هذه الهزيمة المؤقتة المحدودة ، فقد أصبحوا أكثر اتحاداً ، وأكثر طاعة لأوامر قائدهم الأعلى ، رسول الله ، مما حقق لهم الانتصار فى جميع الغزوات التالية ، بينما لم تستفد قريش شيئاً من انتصارها الجزئى ، اللهم إلا إشفاء غليلها والتنفيس عن حقدها وبغضها للإسلام والمسلمين .

الاستعداد لغزوة الخندق فى رمضان ٥ هـ :

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة [٢] . ولكن مقدماتها ، والاستعدادات لها ، جرت فى شهر رمضان من هذه السنة ، مما يجعل الحديث عن هذه المقدمات والاستعداد يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ١٢٠ – ١٢١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٢٤ ، الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٣ .

تحدّث المؤرخ الطبرى عن أسباب حرب الخندق فقال :

« وكان الذى جرّ غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، فيما قيل ، ما كان من إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير عن ديارهم »(١) .

كان الرسول ، بعد هجرته إلى المدينة ، كريماً فى معاملة اليهود ، إلى أبعد حدود الكرم ، فكان يصابرهم ويصبر عليهم ويغض الطرف عن كيدهم ، ويحترم دينهم ، ويساوى بينهم وبين المسلمين ، فى الحقوق والواجبات . ولكن يهود المدينة عملوا على بث بذور العداء والخصام بين المسلمين ، فحاولوا إثارة روح البغضاء بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين فريقى الأنصار ، الأوس والخزرج . كما أعلن اليهود تأييدهم لقريش ، وحرضوها على قتال المسلمين ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش فى بدر . وأصبح اليهود خطراً عظيما على الدعوة الإسلامية ، كما قال الله تعالى :

(لتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلَّذِين آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا)(٢).

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) المائدة : ٨٢ .

شنّ اليهود حرباً عنيفة على المسلمين ، فقد حاولوا قتل الرسول ، وحرّضوا الكفار على قتال المسلمين ، وحزّبوا الأحزاب عليهم ، ونقضوا عهود المسلمين ، فرأي محمد والمسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم كيد اليهود، واضطروا إلى مقاومتهم ومحاربتهم، لأن فرديّتهم العدوانية كانت تعارض إنسانيته ، كما كانت هذه الفردية تقف حائلاً أمام الوحدة الإسلامية والعربية[١] .

لم يكن اليهود فى الحجاز متحدين ، وليس بينهم رابطة سياسية تجمعهم ، بل كانوا قبائل متفرقة . فلما أظهروا عداءهم للمسلمين لم يكوّنوا جبهة واحدة للوقوف أمامهم ، فحاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة .

بدأ الرسول صراعه مع اليهود بقبيلة بنى قينقاع ، وكان الرسول قد جعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ألا يظاهروا عليه عدوّاً . ولكن بعد موقعة بدر نقض بنو قينقاع العهد[٢] . فحاصرهم الرسول خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى التسليم ،

---

(١) انظر كتابنا (العرب واليهود فى العصر الإسلامى) ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٦٨ .

وتمّ جلاؤهم عن المدينة ، فنزلوا فى أذرعات فى شمال الحجاز[١] .

ثم جاء دور قبيلة بنى النضير ، وقد تآمروا على قتل الرسول ، إذ أرادوا أن يلقوا عليه بصخرة عظيمة وهو جالس بجانب جدار بيت مع بعض صحابته ، ومنهم أبو بكر وعمر وعلى[٢] . فطلب الرسول من بنى النضير الجلاء عن المدينة لنقضهم العهد ، وأمهلهم عشرة أيام ، فلما أبوا حاصرهم الرسول حتى طلبوا الصلح ، واتفقوا على أن يرحلوا من المدينة ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم ، وللمسلمين أرضهم ونخلهم وسلاحهم .

وأراد يهود بنى النضير شفاء غليلهم والثأر من المسلمين ، فخرج نفر منهم ، ومن بنى وائل ، إلى قريش فى مكة ، فدعوها إلى قتال الرسول ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت قريش لهم : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فقال اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه[٣] !

---

(١) المقريزى : امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٢٥ .

قال الله تعالى فى هؤلاء اليهود : (ألم تر إلى الَّذِين أُوتُوا نصيباً من الكِتَاب يُؤْمِنُون بالجبْت والطَّاغُوتِ ويَقُولون للَّذِين كفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى من الَّذِينَ آمَنُوا سبيلا . أُولئك الَّذِينَ لَعنَهُمُ اللهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللهُ فلَنْ تَجِدَ لَهُ نصيرًا)[١].

حرّض اليهود بعض القبائل العربية ، ممن لهم ثأر عند المسلمين ، لينضموا إلى قريش . وخرج أبو سفيان على رأس أربعة آلاف قرشى وثلثمائة جواد وألف وخمسمائة بعير ، غير جند وعتاد القبائل الأخرى ، وبلغ عدد الجند عشرة آلاف مقاتل ، تقدموا جميعاً إلى المدينة[٢] .

وكانت المدينة محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين ، غير أن الجانب الشمالى كان ضعيفاً ، فأشار سلمان الفارسى على الرسول بحفر خندق حول المدينة ، ونالت الفكرة إعجاب الرسول ، وكانت هذه الطريقة الدفاعية غير مألوفة للعرب ، وبدأ الرسول تنفيذ الاقتراح ، فعين لكل قبيلة من المسلمين نصيبها من العمل ، واشترك معهم بنفسه فى أعمال

---

(١) سورة النساء الآيتان ٥١ و٥٢ (الجبت والطاغوت : كل ما يعبد من دون الله).
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ .

الحفر . حتى إذا تم حفر الخندق ، عسكر الرسول وأصحابه خلفه ، وتعجبت قريش من فكرة الخندق فقالوا : والله لهذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها[١] .

حاصرت الأحزاب وقريش المدينة ، ولم يقع بين الطرفين سوى التراشق بالنبال ، ولما طال أمد الحصار ملّه الحاضرون وفكروا فى الانسحاب ، لا سيما غطفان التى جاءت لتنصر على المسلمين بسهولة لكى تنال ثمار سنة كاملة من مزارع خيبر وحدائقها كما وعدها اليهود . ولما علم حيي بن أخطب بتفكير قريش وحلفائها فى الانسحاب قرّر أن يغامر بآخر سهم عنده ، فأخبر قريشاً أن بنى قريظة ، وهم من بقى من اليهود بالمدينة ، قد نقضوا عهدهم مع الرسول وأنهم مستعدون للاتفاق مع قريش وتسهيل دخول المدينة من ناحيتهم . فقوت هذه الفكرة معنويات الأحزاب حتى اقتحم بعض شجعانهم الخندق ، فقاومهم المسلمون وقتلوا معظمهم .

تألم المسلمون بالمدينة لغدر اليهود وخيانتهم ، فلجأوا إلى الحيلة ، فقام نعيم بن مسعود ، وكان قد أسلم حديثاً ولم يعلم أحد من قريش بإسلامه ، فسعى بين اليهود وقريش ، وزين

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧ .

لليهود أخذ رهائن من قريش ، ثم أخبر قريشاً أن اليهود يريدون أخذ ساداتهم لتسليمهم للرسول ، ولما طلب اليهود رهائن من قريش رفضت قريش وشكت فى إخلاص اليهود ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وفى تلك الليلة عصفت ريح عاتية بمعسكر الأحزاب أوقعت فى قلوبهم الرعب فرحلوا[1] .

سرية زيد فى رمضان ٦ هـ :

كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام سلسلة متصلة من الجهاد والكفاح ، من أجل نشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الحق . وبعد انتصار المسلمين فى غزوة الخندق فى شوال سنة ٥هـ، نجح الرسول فى الخلاص من كيد يهود بنى قريظة بالمدينة ، فقد كانوا شوكة دائمة فى جنب الجماعة الإسلامية ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نجح من قبل فى إجلاء اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة .

وشهد العام السادس بعد الهجرة سلسلة من السرايا ، منها سرية عكاشة بن محصن فى ربيع الثانى ، وسرية أبى عبيدة ابن الجراح فى نفس الشهر ، وسرية زيد بن حارثة إلى العيص

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٣ ص ١١١ – ١١٣ .

فى جمادي الأولى ، وسرية زيد أيضاً إلى بنى ثعلبة فى جمادى الآخرة ، وسرية زيد إلى وادى القرى فى رجب ، وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان ، وسرية على بن أبى طالب إلى فدك فى شعبان أيضاً .

وفى شهر رمضان من هذه السنة (٦ هـ) أجدب الناس جدباً شديداً ، فاستسقى الرسول صلى الله عليه وسلم بالناس . وفى رمضان أيضاً ، بعث الرسول بسرية قادها زيد بن حارثة ، الذى قاد كثيراً من السرايا كما شهدنا ، لقتال بنى فزارة الذين انضموا إلى قريش فى غزوة الخندق ، بتحريض من يهود المدينة . فقاتلهم زيد فى وادى القرى ، وقتل كثيراً منهم ، وكان ممن قتلهم امرأة ربيعة بن بدر ، التى اشتهرت باسم (أم قرفة) ، وكان قد ذاع صيتها بين العرب حتى إنهم كانوا يقولون : « لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت »[١] .

سرية غالب فى رمضان ٧ هـ :

فى ذى القعدة من السنة السادسة بعد الهجرة ، خرج الرسول مع عدد من المسلمين ، قاصدين مكة للاعتمار ، وحاول المشركون

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢٨٧ .

منعهم ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى عقد صلح الحديبية ، الذى كان من نصوصه عقد هدنة مسلحة لمدة عشر سنين ، وأن يُسمح للمسلمين بأداء العمرة فى العام التالى . وانتهز الرسول فرصة هذه الهدنة مع قريش، فبعث بكتبه إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام . وفى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة ، غزا الرسول مدينة خيبر حيث تجمع اليهود بعد إجلاء الرسول لهم عن المدينة .

وشهد العام السابع من الهجرة أيضاً عدة سرايا ، منها سرية غالب بن عبد الله فى رمضان، وتألفت من مائة وثلاثين مسلماً ، لقتال بنى عبد بن ثعلبة ، وكانوا قد أعلنوا عداءهم للمسلمين ، فانتصر غالب عليهم ، وغنم كثيراً من النعم والشاء ، ساقها إلى المدينة [1] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٠٨ .

فتح مكة فى رمضان سنة ٨ هـ

مقدّمات فتح مكة :

بعد إخفاق المشركين فى غزوة الخندق ، لم يقع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قريش واقعة هامة ، وإن ظل التوتر سائداً بين قريش والمسلمين . وفى ذى القعدة سنة ٦ هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمراً ، لا غازياً ، ليعلن للعرب أن دينه يحترم الكعبة كما يحترمونها ، فيخفف من عدائهم شيئاً . وخرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وكان معهم هدى كثير لنحره عند الكعبة ، ولتفريقه بين فقراء مكة[١] .

علم أهل مكة بخروج المسلمين ، فأصابهم الذعر ، وأجمعت قريش وحلفاؤها على صدّه عن المسجد الحرام ، وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس لمنع المسلمين من دخول مكة ، وأمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن طريق خالد ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٥٥ .

ثم نزل فى الحديبية[١] .

أرسلت قريش بعض رسلها تطلب من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد أحدهم إلى قريش ، وهو عروة بن مسعود الثقفى ، يقول : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه[٢] . رفضت قريش السماح للمسلمين بالعمرة ، وبعثت بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرّة ، ولكن المسلمين هزموهم[٣] .

لم تجد قريش مفرّاً من التفاوض مع الرسول فى الصلح ، فاتفقوا على : (١) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدّة عشر سنين (٢) أن يردّ الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد (٣) أن من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك (٤) أن يرجع الرسول

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٤ (الحديبية بئر على مرحلة من مكة) .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٢ .

(٣) ابن سعد : الطبقات جـ ٣ ص ١٤١ .

هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش وليس معه إلا سلاح المسافر [١].

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً عظيما ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التى كانت تقودها لقتال المسلمين ، وكان الرسول يريد أن تخلى قريش بينه وبين هذه القبائل ، فأتاح هذا الصلح الفرصة لنشر الإسلام بين سائر العرب ، وكان هذا النصر السياسى يفوق فى قيمته النصر العسكرى .

بعد صلح الحديبية ، أخذت قريش تغيّر من نظرتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأصبحت ترى أنه قرشى ، رغم ما كان بينهما من عداء وخصام ، وصارت قريش تبدى إعجابها بعلو شأن الرسول ونجاحه السياسى ، مما حمل بعض رجالات قريش على اعتناق الإسلام ، مثل عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد ، وعلى الهجرة إلى المدينة ومبايعة الرسول على الإسلام [٢].

حان الوقت الذى حدّدته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء العمرة فى مكة وقضاء ثلاثة أيام فى الأماكن المقدسة . ورحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين ، وصحبوا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٠٣ .

معهم سبعين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة . وكان لدخول المسلمين مكة رنة فرح عظيمة فى نفوسهم ، واخترقوا أبواب مكة فى ملابس الإحرام وألسنتهم تلهج بشكر الله . واعتنق بعض أهل مكة الإسلام[١] .

عوامل فتح مكة :

اتسع نطاق الإسلام ، واعتنقه كثير من القبائل العربية ، وآلاف البدو ، وقد نبذوا جميعاً ما كانوا عليه فى الجاهلية من عداء وخصام ، ووجهوا قواهم نحو الدفاع عن دينهم الجديد الحنيف ، وأصبحوا جميعاً جنود الإسلام والرسول .

جالت خواطر كثيرة فى نفس الرسول عليه الصلاة والسلام، جعلته يفكر فى القيام بمشروع كبير. فقد تذكر وطنه الأصلى ، وتذكر أسرته وأقاربه ، والسنوات السعيدة التى قضاها فى مكة التى ما زالت فى أيدى أعدائه ، وتذكر أن الكعبة لا تزال تحت سيطرة الوثنيين ، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشركين ، فيجعله مكاناً لعبادة الله ومقصداً للمسلمين[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٢ .

(٢) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢١٦ .

نقضت قريش صلح الحديبية ، فقد كان الصلح قد نصّ على أن من أراد أن يدخل فى عقد الرسول وعهده فله ذلك ، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فليدخل فيه . ودخلت خزاعة فى عهد الرسول ، بينما دخلت بنو بكر فى عهد قريش . وكانت القبيلتان فى العصر الجاهلى فى صراع قبلىّ دموىّ . وحدث أن حرّضت قريش بنى بكر على الثأر من خزاعة ، وأمدّتهم قريش بالأسلحة ، وقام بنو بكر بالهجوم على ديار خزاعة وقتلوا عدداً من أبنائها ، وأسرعت خزاعة إلى مكة تلوذ بدار بُدَيْل بن ورقاء، وتشكو له نقض قريش وبنى بكر لعهدهم للرسول ، وخرج بُدَيْل مع نفر من خزاعة إلى المدينة، فأعلموا الرسول بما حدث لخزاعة ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن قريشاً خانت عهدها ، وبدأت بالعدوان ، مما يجعله فى حلّ من أن يغزو مكة ويفتحها ، وبدأ الرسول يدعو المسلمين إلى الاستعداد للجهاد فى سبيل الله والإسلام[1] .

أبو سفيان فى المدينة :

أدركت قريش خطورة الموقف ، وشعرت بالذعر والخوف ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

فقد أصبح المسلمون قوة عظمى تعمل قريش حسابها ، وفطنت قريش أيضاً إلى أن الرسول والمسلمين لن يسكتوا على نقضها لصلح الحديبية ، فقد كانت قريش هى البادئة بالعدوان. وعلمت قريش باستعدادات المسلمين للجهاد ، فشعرت بالخوف ، ورأت تجنب الدخول فى معارك مع المسلمين ، وقد علمت قوّتهم وعزمهم ، ولذا رأت قريش أن تبعث بزعيمها أبى سفيان إلى المدينة كسفير للسلام ، وكانوا يعرفون صلته بالرسول ، إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام متزوجاً من ابنته أم حبيبة .

وكانت مهمة أبى سفيان صعبة ، فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف منه بالأمس موقف العداء . وما لبث أن صُدم صدمة أخرى ، فقد أدرك الرسول ضعف القرشيين ومحاولتهم تجنب الحرب ، فلم يفز أبو سفيان بجواب من الرسول [1] .

خرج أبو سفيان حتّى قدم إلى المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، حتّى إذا جلس أبو سفيان على فراش الرسول ، طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ،

---

(١) أرفنج : حياة محمد ص ٢١٧ .

أم رغبت به عنى؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر !

وخرج أبو سفيان حتى أتى الرسول ، فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر فطلب منه شفاعته له عند الرسول ، فقال أبو بكر : ما أنا بفاعل. فطلب شفاعة عمر ابن الخطاب فقال له عمر : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ! ! فخرج أبو سفيان إلى على بن أبى طالب يطلب شفاعته ، فقال على : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. والتفت أبو سفيان إلى فاطمة ، بنت الرسول وزوجة على ، وكان ابنها الحسن بن على بين يديها ، فقال أبو سفيان لفاطمة : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فأجابت فاطمة : والله ما بلغ بُنَيّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاود أبو سفيان رجاء على بن أبى طالب ، فقال له : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى . فقال علىّ : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . فتساءل أبو سفيان : أوترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ ! فأجاب على : لا والله ، وما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد ، فصاح : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش ، سألوه : ما وراءك . فقال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما ردّ علىّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علىّ بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئاً أم لا ؟ فسأل القوم : وبم أمرك ؟ فأجاب : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت فقالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يغنى عنك ما قلت . فقال أبو سفيان : لا والله ، ما وجدت غير ذلك[1] !

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٨ — ٣٩ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

الاستعداد لغزو مكة :

أعدّ الرسول عليه الصلاة والسلام حملة عسكرية لغزو مكة ، وقدم إليه حلفاؤه من جميع أرجاء المدينة ، ولكنه لم يخبرهم بوجهة الحملة . وأمر الرسول بمراقبة الطرق الموصّلة إلى مكة حتى لا يتسرب نبأ الغزو إلى القرشيين . وما لبث الرسول أن أعلن أنه يغزو مكة ، وأمر المسلمين بالاستعداد .

وكان من بين المهاجرين رجل يدعى حاطب بن أبى بلتعة ، وقد خلف أسرته فى مكة ، ولم يكن له فى مكة أصدقاء يرعون أسرته . وأراد حاطب أن يفوز برضاء القرشيين بخيانة الرسول والمسلمين ، فكتب رسالة إلى قريش يخبرها فيه بعزم الرسول على غزو مكة ، وسلّم الرسالة إلى امرأة تدعى سارة ، من موالى عبد المطلب ، وأغراها بالمال ، فأخفت الرسالة فى شعرها وخرجت قاصدة مكة .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ليلحقا بالمرأة . ونجحا فى القبض عليها ، وفتّش على بن أبى طالب حوائجها فلم يجد الرسالة ، فقال علىّ لها : إنى أحلف بالله

ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . واضطرت المرأة إلى إظهار الرسالة ، فعاد عليّ والزبير بها إلى الرسول بالمدينة . وحاول حاطب أن يدافع عن نفسه ، بأنه كان يرعى مصالح أسرته بمكة ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر . ثم قال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم[1] . وأنزل الله تعالى فى حاطب : (يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا لاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَولياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ) .

خروج الجيش فى ١٠ رمضان ٨ هـ :

خرج الرسول عليه الصلاة والسلام ، على رأس الجيش الإسلامى ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ . وصام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد ، أفطر الرسول ، ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٠ — ٤١ ، الطبرى ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢ .

تألّف جيش الرسول من عشرة آلاف مسلم ، واشترك فيه كلّ المهاجرين والأنصار ، فلم يتخلّف منهم أحد ، وانضم إلى الجيش كثير من القبائل ، وسلك الجيش دروباً بين الجبال غير مطروقة، وحرص المسلمون ألا يصدر عنهم صوت أو دقّ الطبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم . وخرج من مكة أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبُديل بن ورقاء ، يتحسّسون الأخبار [١] .

وفى الطريق التقى العباس بن عبد المطلب بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قدم العباس من مكة هو وأسرته « وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض » [٢] .

وخرج أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله ابن أبى أمية بن المغيرة للقاء الرسول، فالتقيا به فى طريقه إلى مكة ، فالتمسا الدخول إليه ، وشفعت أم سلمة لهما فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك . فرفض الرسول لقاءهما لما ناله منهما من سوء وأذى . وكان مع أبى سفيان ابن

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٣٢٩ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٢ .

له ، فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنىّ هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته رق لهما ، وأذن لهما باللقاء وأعلنا إسلامهما[١] .

اقترب الرسول من مكة ، وأدرك العباس بن عبد المطلب أن النصر للرسـ ل وللمسلمين ، والهلاك لقريش والمشركين ، وأشفق على قر يش ـن مصيرها المحتوم ، وعبر العباس عن إشفاقه ، فقال : يا صباح قريش ، والله لئن بغتها رسول الله فى بلادها ، فدخل مكة عنوة ، إنه لهلاك قريش آخر الدهر . ورأى العباس أن يأخذ لأهل مكة الأمان من الرسول ، فجلس على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وخرج عليها حتى ناحية (الأراك) ، لعله يجد حطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة ، حتى يخبره بأن ينقل إلى أهل مكة ما ينتظرهم من هزيمة ساحقة ، وحتى يسارعوا إلى طلب الأمان من الرسول .

وأتيحت الفرصة للعباس أن يستمع إلى حوار دار بين أبى سفيان وبُديل بن ورقاء . قال أبو سفيان لبديل: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . وصاح العباس على أبى سفيان :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٣ .

ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ،واصباح قريش والله ! فتساءل أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ فأجاب العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك[1].

امتطى أبو سفيان عجز البغلة ، خلف العباس ، حتى قدما على عمر بن الخطاب ، فرأى أبا سفبان فصاح : أبو سفيان عدوّ الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . وهرع عمر إلى الرسول ينبئه بالخبر . وركضت البغلة ، فسبقت عمر ، وأسرع عمر الخطى . فوصل العباس وعمر إلى خيمة الرسول عليه الصلاة والسلام فى وقت واحد . وطلب عمر من الرسول أن يأذن له فى ضرب عنق أبى سفيان . ولكن العباس قال للرسول : يا رسول الله ، إنى قد أجرته . وحاول عمر أن يُقنع الرسول بقتل أبى سفيان ، وشفع العباس لأبى سفيان إذ أجاره ، وحسم الرسول الأمر ، فقال للعباس : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

حتى إذا كان صباح اليوم التالى ، قدم العباس بأبى سفيان،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٤ .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن[١] لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد . فقال الرسول : يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فأجاب أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال العباس لأبى سفيان : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فشهد أبو سفيان شهادة الحق وأسلم ، فقال العباس للرسول : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب أبو سفيان لينصرف ، قال الرسول للعباس : يا عباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل[٢] حتى تمر به جنود الله فيراها[٣] .

---

(١) يأن : يحن .

(٢) خطم الجبل : أنف الجبل ، أو مضيق يخرج منه .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٥ — ٤٦ .

وقف العباس وأبو سفيان فى مضيق الوادى ، وكلما مرّت قبيلة ، تساءل أبو سفيان : يا عباس ، من هذه ؟ فيخبره العباس باسم القبيلة . ثم مرّ الرسول فى كتيبته الخضراء[١] ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأجاب العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوّة . فقال أبو سفيان : فنعم إذن [٢] .

نصح العباس أبا سفيان فقال له : الحق الآن بقومك فحذّرهم . فهرع أبو سفيان إلى مكة ، ووقف فى المسجد يصرخ : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبلَ لكم به ، من دخل دارى فهو آمن . فقالوا له : ويحك وما تغنى عنا دارك ! ؟ فقال أبو سفيان : ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن[٣] .

---

(١) سميت الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢٣٢ .

الرسول فى مكة :

وصل الرسول بجيشه إلى ناحية ذى طوى ، وأشرف على مكة التى بدت منها علامات الاستسلام ، فوقف الرسول عليه الصلاة والسلام على راحلته ، وانحنى لله شاكراً ما أكرمه الله به من الفتح .

علم أبو قحافة ، والد أبى بكر ، ولم يكن قد أسلم بعد ، بقدوم الجيش الإسلامى إلى مكة ، فطلب من حفيدة له أن تصعد به إلى جبل أبى قبيس الذى يشرف على مكة . وكان قد كفّ بصره ، فسأل حفيدته أن تصف له ما تراه ، فوصفت له كثرة عدد المسلمين وخيولهم . فطلب منها أن تسارع بمصاحبته إلى بيته . وقد أكرمه الرسول عند دخوله مكة ، فقد قدم أبو بكر بأبيه إلى الرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت . فأجلس الرسول الشيخ بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسلم . فأعلن أبو قحافة إسلامه[١] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٨ .

وضع الرسول خطة دخول مكة ، فقسم الجيش إلى أربعة فرق ، وأمر المسلمين جميعاً ألا يقاتلوا وألا يريقوا دماً إلا إذا أكرهوا على ذلك . وجعل الرسول الزبير بن العوام على رأس فرقة وعهد إليه بالدخول إلى مكة من جهة الشمال ، وجعل خالد ابن الوليد على رأس فرقة أخرى تدخل مكة من أسفلها ، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى من ناحية كداء ، وجعل الرسول أبا عبيدة بن الجراح على المهاجرين . وبينما تأهب الجميع للتقدم ، صاح سعد بن عبادة : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة » . وعلم الرسول بمقالة سعد ، فأمر على بن أبى طالب أن يدركه ويأخذ الراية منه (١) .

وقف الرسول صلى الله عليه وسلم فوق الجبل ، ينظر نحو السهل ، فرأى لمعان الرماح والسيوف ، وعلم أن خالد بن الوليد قد اشتبك مع القرشيين فى قتال . وكانت الفرقة التى يقودها خالد تتألف من جنود من القبائل العربية التى اعتنقت الإسلام ، وقد فوجئوا بوابل من سهام القرشيين ، فقد كان يقيم فى هذه المنطقة فى أسفل مكة أشد قريش عداء للمسلمين ، وقد أبدوا

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٤٩ .

سخطهم على دعوة أبى سفيان إلى السلام ، واستعدّوا للقتال ، وقذفوا المسلمين بالسهام ، فاضطر خالد إلى قتالهم ، وانتصر عليهم ، وقتل بعضهم . وقتل من المسلمين فارسان كانا قد ضلا الطريق وسارا بعيدين عن فرقة خالد(١) .

نزل النبي بأعلى مكة ، قبالة جبل هند ، وهنالك ضُربت له قبة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة . وسأله البعض إذا كان يريد ن يستريح فى بيته ، فأجاب : كلا ، فما تركوا لى بمكة بيتاً . ودخل الرسول إلى القبة يستريح ، وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد به عزيزاً منتصراً إلى البلد الذى آذاه وعذّبه . وأجال الرسول بصره فى الوادى ، وفى الجبال المحيطة به ، حيث كان يأوى إلى شعابها حين يشتدّ به أذى قريش وتشتد به قطيعتها . وتطلّع الرسول إلى موضع حراء ، حيث كان يتحنث حتّى نزل عليه الوحي . ثم اتجه الرسول بقلبه وبلسانه إلى الله عز وجل بالشكر والحمد .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام معتلياً ناقته القصواء ، وقد أركب على عجزها أُسامة بن زيد بن حارثة ، فركع

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٠ .

على رحله ، وتلا سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مبيناً . ليغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم من ذنْبِك وما تأَخَّر ، ويتمّ نعمته عليكَ ، ويهْدِيك صراطاً مُسْتقيماً . ويَنْصُرَكَ اللهُ نصرًا عزيزًا) .

الفتح المبين :

قصد الرسول إلى الكعبة ليقضى الطواف ، فطاف بها سبعاً على راحلته ، يستلم الركن بمحجن[1] فى يده . فلما قضى طوافه ، قام على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدمىّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحجاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدّية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » . ثم تلا الرسول صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

---

(١) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده .

(يـأيُّها النَّاس إنَّا خَلَقْنَاكم مِنْ ذَكرٍ وأُنْثَى وَجَعلْناكم شعُوباً وقبَائل لِتَعَارفوا إنَّ أكْرمَكم عِنْدَ اللهِ أَتقَاكم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ) [١] .

واتجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال لقريش فقال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال الرسول فى سماحة عظيمة : فاذهبوا فأنتم الطلقاء[٢] . ويعلق المؤرخ الطبرى[٣] على ذلك بقوله : « فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئاً ، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء » .

أعلن الرسول العفو العام الشامل ، فلم يقابل عداء قريش إلا بالإحسان إليهم . وأشاد المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[٤] بتسامح الرسول وعفوه فقال : كانت تصرّفات الرسول فى مكة تدل على أنه نبيّ مرسل لا على أنه قائد مظفر ، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه رغم أنه أصبح فى مركز قوى ، ولكنه

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٤ — ٥٥ .
(٣) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٤) أرفنج : حياة محمد ص ٢٢٩ .

توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو .

اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وجلس عمر بن الخطاب يأخذ البيعة . فلما فرغ الرسول من بيعة الرجال ، أخذ بيعة النساء ، وكانت منهن هند بنت عتبة ، التى قدمت متنقبة متنكرة ، إذ كانت تدرك جرمها الكبير إذ حرّضت على قتل حمزة بن عبد المطلب . وفطن الرسول إلى هند رغم تنكرها ، فقالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . فعفا الرسول عنها . وأخذ عمر بن الخطاب البيعة من هؤلاء النسوة ، واستغفر رسول الله لهن[1] .

جلس الرسول عليه الصلاة والسلام فى المسجد ، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟ حتى إذا قدم عثمان على مجلس الرسول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء[2] . وتأثر عثمان من عطف الرسول ،

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .

وأعلن اعتناقه الإسلام ، واستمر يتولى الحجابة .

قام الرسول صلى الله عليه وسلم على الصفا يدعو الله عز وجل ، وقد التف حوله الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم[١].

ضرب الرسول بذلك للناس مثلا فى البرّ بعهده فى بيعة العقبة ، وفى الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدّة إلى جانبه ، برًّا ووفاء لا ينسيهما وطن ولا أهل، ولا تنسيهما مكة البلد الحرام[٢] .

نهاية الوثنية :

كان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة . وارتفعت بفتح مكة رايات الإسلام ، ودالت دولة الأصنام . فقد رأى الرسول عليه الصلاة والسلام تطهير الكعبة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ٤١٠ .

مما حولها من أوثان ، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما .

دخل الرسول البيت الحرام يوم الفتح ، فرأى فيه صورة الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً وفى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين . ثم أمر الرسول بطمس هذه الصور[١]. وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) . فما أشار الرسول إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع[٢] .

أمر الرسول خالد بن الوليد بتحطيم (العزى) فى وادى نخلة التى قدستها قريش وكنانة ومضر ، وقام عمرو بن العاص بهدم (سواع) ، وقام سعيد بن زيد الأشهلى بهدم (مناة) . وبعد تطهير الكعبة من الأوثان ، دخلها الرسول ومعه بلال بن رباح ، وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤذن ، وتردد صوته فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٩ .

جنبات مكة ، تعلن كلمة الله عز وجل ، وتبشر بانتصار الإسلام على الكفر والشرك والوثنية .

تهدّم إلى الأبد سور الأصنام الذى فرّق ، طوال عشرين سنة ، بين القرشيين المهاجرين ، والقرشيين الذين بقوا فى مكة ، فتعانق هؤلاء وأولئك الإخوة — الذين كانوا بالأمس أعداء — متحابين متحدين فى سبيل الله ، وانضم إلى الفريقين فريق ثالث ، هو فريق الأنصار من أهل المدينة ، تلك المدينة التى كانت فيما مضى منافسة لمكة ، فتآخت المدينتان ، واتحدتا تحت اسم (الحرمين)[1] .

وفى غداة يوم الفتح أقدمت خزاعة على قتل رجل من مشركى هذيل ، فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخطب فى الناس : « يأيها الناس ، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد فيها شجراً . لم تُحلَل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى، ولم تُحْلَل إلاّ هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلّغ الشاهد منكم

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ٢٦٥ .

الغائب »[1] .

أقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة خمسة عشر يوماً ، ينظّم فيها شئون مكة ، ويفقه أهلها فى الدين ، وبعث السرايا للدعوة إلى الإسلام .

نتائج فتح مكة :

كانت مكة تعرف باسم (أم القرى) وكان مركزها الدينى يجعلها ذات سيادة على جميع المدن العربية ، فكانت الوفود تأتيها فى موسم الحج من أرجاء الجزيرة العربية فى كل عام . فكان لأهل مكة نفوذ وتأثير عظيمان على القبائل التى تدين لقريش بزعامتها الروحية . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل فتح مكة ، كلما دعا القبائل العربية إلى الإسلام قالوا له: أقنع قومك أولا . فكان لفتح مكة، واعتناق أهلها الإسلام، أثر كبير فى انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية .

كان فتح مكة ، وتطهير الكعبة من الأوثان ، من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ، فقد آمنت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادئ ذى بدء ، أن كلمة الله هى العليا ، وأن الرسول يدعو إلى الحق ، وأن المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٠ .

تلحظهم العناية الإلهية ، فسارعوا إلى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وعُرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن أخذت تفد فى هذه السنة وفوداً إلى الرسول تعلن اعتناقها الإسلام ، ودخولها فى طاعة الرسول . وأعلنت هذه الوفود إسلامها فى حضرة الرسول ، الذى فقههم فى الدين ، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمنحها لوفود القبائل العربية[١] .

ومن أبرز النتائج التى ترتبت على فتح مكة ، غزوة حنين ، فى ٦ شوال سنة ٨ هـ . فقد أدركت قبيلتا ثقيف وهوازن خطورة فتح مكة على مصير القبيلتين ، فجهرتا بالعداء للرسول والمسلمين. وكانت ثقيف تسيطر على الطائف ، وكانت منزلتها كمنزلة قريش فى مكة . وأقامت ثقيف فى الطائف معبداً لوثنها (اللات) ، وهى صخرة مربعة ، أقامت ثقيف حولها حرماً ، وأرادت إغراء العرب بالحج إليها بدلا من الحج إلى الكعبة . وكان الرسول ، قبل الهجرة إلى المدينة ، قد فكر فى الهجرة إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً صدته وآذته وأخرجته عن مدينتها . وانتهت موقعة حنين بانتصار الرسول والمسلمين على تحالف القبيلتين .

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

عودة الرسول من غزوة تبوك

(رمضان سنة ٩ هـ)

مقدّمات غزوة تبوك :

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وشهد شهر رمضان بعض أحداث هذه الغزوة ، ثم كانت عودته إلى المدينة فى رمضان من هذه السنة[١] .

وهذه الغزوة تصوّر موقف الدولة الرومانية من الإسلام والرسول ، ومن قيام الدولة العربية الإسلامية . وكان المسلمون يبدون عطفاً على أهل الكتاب ، من اليهود والمسيحيين ، وكانوا يتمنون انتصارهم على الوثنيين والمجوس . ولما كانت جحافل الفرس المجوس تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية ، فى آسيا وفى مصر ، ولما وقفت الجيوش الفارسية تدق أبواب القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية ، ولما لاحت الساعة الفاصلة ، ساعة انهيار هذه الدولة الكبرى ، نزلت آيات كريمة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٩ .

تؤكد انتصار الرومان فى النهاية : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فى أَدْنَى الأَرْضِ وهُمْ من بَعْدِ غلبهم سَيَغْلِبُونَ فى بضْعِ سِنِينَ ﴾[1] وتحققت النبوءة السماوية الكريمة ، ففى عام بدر انتصر المسلمون على الوثنيين ، وانتصر الرومان المسيحيون على الفرس المجوس ، واستعادوا ما فقدوه من أقاليم ، بل اجتاحوا بلاد الفرس .

وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية ، فقد وقفت هذه الدولة موقفاً عدائياً من قيام الدولة العربية الإسلامية ، فقد كان الرومان يطمعون فى مدّ نفوذهم السياسى إلى أرجاء الجزيرة العربية ، وقد نجح الرومان فى دفع الحبشة إلى إسقاط الدولة الحميرية العربية ، وبدأت فترة خضعت اليمن فيها للنفوذ الحبشى الرومانى . كما قاد أبرهة الأشرم حملة عسكرية ، بتحريض من الرومان ، لغزو مكة وهدم الكعبة ، تمهيداً لمدّ النفوذ السياسى الحبشى الرومانى إلى بلاد الحجاز أيضاً . ولذا أبدى الرومان ألمهم وسخطهم حين قامت الدولة العربية الإسلامية بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وحين بدأ انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية ، أدرك الرومان أنه

---

(١) سورة الروم ١ — ٤ .

أصبح لا مجال لتحقيق حلمهم القديم والسيطرة على بلاد العرب [١] .

ثم كانت غزوة مؤتة التي يصفها الدكتور هيكل بأنها « مقدمة تبوك وما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام » [٢] . وقد استبسل العرب المسلمون فى قتال الرومان ، واستشهد منهم زيد ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب . وضرب المسلمون كثيراً من الأمثلة للبطولة والفداء . فقد كان الرومان أكثر عدداً وأوفر أسلحة ومؤناً ، وكانت خطوط الإمدادات والتموين بين المسلمين فى مؤتة والعاصمة المدينة طويلة بعيدة ، بينما كان الرومان يحاربون على مشارف دولتهم . ولكن الحماسة للإسلام عوضت المسلمين عن قلة عددهم أوضآلة ذخائرهم ومؤنهم . وقد عبر أحد المسلمين ، وهو عبد الله بن رواحة عن حماسة المسلمين فقال : « ما نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة » [٣] .

---

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الإسلامية) ص ٥٦ .

(٢) حياة محمد ص ٣٦٢ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٧ .

خروج الرسول لغزوة تبوك :

كانت تبوك هى الجولة الثانية فى صراع العرب والرومان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد درس المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[١] تطور العلاقات بين المسلمين والروم ، فقال : استطاع الرسول أن ينشر الإسلام فى بلاد العرب ، ونجح فى أن يوحّد القبائل المتنازعة المتخاصمة ، فأصبحت تضمها دولة واحدة ، وأصبحت هذه الدولة مستعدّة للاشتباك فى حروب خارجية . ولفتت انتصارات محمد الأخيرة ، وخاصة فى مؤتة ، انتباه الإمبراطور هرقل فرأى أن يرسل جيشاً لغزو بلاد العرب وقتال هذا العدو الجديد . وفى الوقت نفسه ، عزم الرسول على قتال هؤلاء الأعداء ونشر الإسلام فى قلب بلاد الشام .

علم الرسول عليه الصلاة والسلام أن الرومان يهيئون جيوشاً لغزو حدود بلاد العرب الشمالية ، لمقاومة سلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة . فلم يتردّد الرسول فى تقرير مواجهة هذه القوى

(١) أرفنج : حياة محمد ص ٢٥٢ .

بنفسه والقضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرض لهم[١] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ظروف الموقف كلها ، وقد كان الوقت صيفاً والجو شديد القيظ ، كما كان موسم نضج البلح قد اقترب حيث يتفرغ بعض المسلمين لجنيه ، كما كانت المسافة بعيدة بين المدينة وحدود الشام ، إلى جانب عدم توفر استعدادات كبيرة من أجل تحقيق الانتصار. ولكن الرسول ، وهو يدرك هذه الظروف كلها ، رأى أن يدافع العرب المسلمون عن دينهم وأرضهم وبلادهم ، فيخرجوا جميعاً لقتال الروم . وعرض الرسول المشروع على المسلمين ، فنال موافقة الغالبية العظمى منهم . وتقدم الأثرياء يقدمون أموالهم من أجل تجهيز هذه الحملة العسكرية[٢] .

وحاول المنافقون ، وهم دعاة الهزيمة فى المدينة المنورة ، أن يثنوا بعض المسلمين عن عزمهم ، فقالوا لهم : لا تنفروا فى الحر . فنزلت الآيات الكريمة : (وقالوا لا تَنْفِرُوا فى

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٠ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٩ .

الحرّ ، قُلْ نارُ جهنّمَ أشدُّ حرًّا لو كانوا يَفْقَهُونَ ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جَزَاءً بما كانوا يكسبون)[١] .

أبدى المسلمون حماستهم لمشروع الحملة ، فتبرّع عمر ابن الخطاب والعباس وعبد الرحمن بن عوف بمبالغ كبيرة من المال ، كما تبرع كثير من النسوة بحليهن . وتبرع عثمان بن عفان بألف دينار ، أو بعشرة آلاف دينار كما يذكر بعض المؤرخين . وتبرع أبو بكر بأربعة آلاف درهم ، وتردد الرسول في قبولها ، فقد كان يعلم أنها كل ما يملكه ، فسأله عما بقى له ولأسرته ، فأجاب أبو بكر : الله ورسوله .

خرج جيش الله من المدينة ، يقوده رسول الله ، وتألف الجيش من عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، تقدموا غير عابئين بالقيظ وطول المسافة .

انسحاب الروم وعودة الرسول فى رمضان :

سار الجيش الإسلامى سبعة أيام ، حتى عبر جبال حجر التى كانت تسكنها ثمود فى الأيام الغابرة ، وهى إحدى القبائل العربية البائدة . وكانت الروايات العربية القديمة تصف هذه

---
(١) سورة التوبة ٨١ ، ٨٢ .

المنطقة بأنها « منطقة ملعونة » . ولم يكن بعض المسلمين قد سمعوا بهذه الروايات ، حتى إذا وصلوا إلى هذه المنطقة ، رأوا بئر ماء وقد تفجرت وسط ذلك الوادى المهجور ، كما رأوا كهوفاً على جانبي الجبال ، وهى كهوف ثمود . وتوقف المسلمون عن السير ، للارتواء من هذه البئر ، وطهى بعض الخبز والطعام ، وحلم بعضهم بقضاء الليل فى هذه الكهوف الرطبة . ولكن الرسول كان يعلم سرّ هذه المنطقة ، وقد مرّ بها قبل البعثة خلال رحلاته التجارية ، ولذا نهى المسلمين عن الشرب من ماء البئر ، أو الوضوء منه .

وكانت العناية الإلهية ترعى الجيش الإسلامى ، فقد عوّض الله عز وجل المسلمين عن ماء هذه البئر الملعونة خيراً ، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى سحابة فأمطرت حتى روت الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء[1] .

انطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوّته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته إلى حدودها ليحتمى داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٦٥ .

الروم ، وعلم ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد[١] .

حققت غزوة تبوك أغراضها ، فقد أعلمت الدولة الرومانية قوة الدولة الإسلامية الناهضة ، وجعلتها تعدل تماماً عن فكرة غزو الجزيرة العربية ، وتفطن إلى استحالة تنفيذ حلمها القديم . وما لبثت الدولة الرومانية أن شهدت فى عهد أبى بكر الجيوش العربية تجتاح الأراضى الرومانية فى الشام ومصر .

ولم تكن الدولة الرومانية وحدها هى التى فطنت إلى قوة الدولة العربية الإسلامية ، بل أدرك هذه الحقيقة أيضاً أمراء المناطق المجاورة . فقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، من تبوك ، بعض صحابته يعرضون الإسلام على هؤلاء الأمراء ، أو دفع الجزية . وقدمت وفود هؤلاء الأمراء على الرسول ، يعلن بعضهم اعتناقهم الإسلام ، إذ آمنوا بنبوته وصدق رسالته ، ويعلن البعض الآخر ولاءهم للدولة العربية الإسلامية وموافقتهم على أداء الجزية . ومن هؤلاء يوحنا بن رؤبة أمير مدينة (أيلة)

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٣ .

قرب البحر الأحمر ، وكان مسيحياً .

كتب الرسول للأمير يوحنا عهداً أصبح دستوراً يتبعه المسلمون جميعاً نحو أهل الذمة ، وجاء فى هذه العهد : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيبٌ لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه ، من برّ أو بحر [١] » . وأكرم الرسول يوحنا بن رؤبة ، فأهداه رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بمظاهر الرعاية ، واتفق معه أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار سنوياً .

لم يبد من هؤلاء الأمراء عداء للرسول وللدولة الإسلامية ، غير « أكيدر بن عبد الملك » أمير دُومة ، ورغم أنه أمير عربى إلا أنه آثر التحالف مع الرومان . وبعث الرسول بحملة عسكرية تتألف من خمسمائة فارس يقودها خالد بن الوليد ، بينما تأهب الرسول للعودة إلى المدينة . ونجح خالد فى دخول مدينة دومة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ .

فى سهولة ويُسر ، وصحب خالد الأمير أكيدر إلى المدينة المنورة حيث أعلن أكيدر إسلامه ودخل فى ولاء الدولة العربية الإسلامية .

احتفال الرسول بانتصارات تبوك فى رمضان :

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى المدينة ، فى شهر رمضان المعظم من السنة التاسعة للهجرة . وكانت تبوك هى حلقة فى سلسلة انتصارات الإسلام المجيدة ، وقد احتفل الرسول والمسلمون بعودتهم منتصرين فائزين ، فى شهر مبارك فضيل ، هو شهر رمضان المعظم . فقد شاء الله أن يقترن شهر الصوم بأمجاد الإسلام وانتصارات المسلمين . تحدث الدكتور هيكل[1] عن مغزى غزوة تبوك فقال : بغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كلَّ عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدِّمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام . ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبى عليه السلام . ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطاً بما أفاء الله عليه .

عاد الجيش الإسلامى منتصراً فائزاً ، وخرج أهل المدينة جميعاً لاستقباله وتهنئته بالفوز المبين . ووصف المؤرخ

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٦ .

(واشنجتون أرفنج)[١] عودة الجيش المنتصر ، فقال : على الرغم من هذه الانتصارات الباهرة التى حازها محمد ، إلا أنه دخل إلى المدينة فى مظاهر تنمّ عن البساطة والتواضع التى اتصفت جميع تصرفاته بها . وعند اقترابه من المدينة ، خرج أهل بيته لاستقباله ، فوقف الرسول يحييهم ، وحمل الأطفال خلف جواده . وعاد الجيش محملا بالغنائم التى فاز بها الجنود المسلمون .

كانت فى المدينة جماعة من المنافقين ، يتزعمهم عبد الله ابن أبىّ بن سلول ، الذى كان يحلم بتتويجه رئيساً على المدينة قبل هجرة الرسول إليها ، واضطر عبد الله بن أبىّ وحاشيته إلى أن يخفوا سخطهم وغيرتهم ، وكونوا جماعة النفاق ، وأصبحوا طابوراً خامساً فى المدينة . وحاول هؤلاء المنافقون ، بدون جدوى ، أن يثنوا المسلمين عن الاشتراك فى جيش تبوك . ولذا رأى الرسول بعد عودته من تبوك ، أن يقف من المنافقين موقفاً حازماً حاسماً .

وكان نفر من المنافقين قد بنوا مسجداً فى ذى أوان ، على مسيرة ساعة من المدينة ، وحاولوا أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرّقوا بذلك بين المسلمين ضراراً وكفراً . وطلب

---

(١) حياة محمد ص ٢٦١ .

المنافقون من الرسول ، قبل خروجه إلى تبوك ، أن يفتتح مسجدهم بالصلاة فيه ، فطلب منهم تأجيل ذلك حتى يعود من تبوك . وبعد عودته ، عرف الرسول أمر هذا المسجد ، وأمر هؤلاء المنافقين ، ولذا أمر الرسول بإحراق ذلك المسجد الذى قال الله عز وجل عنه : (والَّذِينَ اتَّخَذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وكفْرًا وتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين) وتفرق شمل المنافقين، وما لبث أن مات شيخهم، عبد الله بن أبىّ، بعد شهرين، وكان الرسول معه كريماً متسامحاً فقد صلى عليه وقام على قبره إلى أن دُفن . وبموته مات النفاق ، وندم سائر المنافقين وتابوا عن نفاقهم وكيدهم[1] .

وكان ثلاثة من المسلمين قد تخلفوا عن جيش تبوك، وأراد الرسول عقابُهم عقاباً معنويًّا ، فنهى المسلمين عن التحدث إليهم ، ولكن معظمهم أبدوا ندمهم وأسفهم وتوبتهم ، فعفا الرسول الكريم عنهم ، بعد أن قاطعهم الرسول خمسين يوماً . ونزلت آيات كريمة فيهم : (لقد تاب الله على النَّبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٧٤ .

ساعة العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كَادَ يَزيغ قُلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنَّهُ بهم رؤوفٌ رحيمٌ . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأَرْضُ بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفُسُهم وظنُّوا أن لا ملجأً من الله إلاَّ إليه ثمّ تَابَ عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّابُ الرّحيم)[1] .

---

(١) سورة التوبة ١١٧ و ١١٨ .

بيعة الطائف للرسول

(فى رمضان ٩ هـ)

حصار الرسول للطائف :

نجح الرسول عليه الصلاة والسلام فى إلحاق الهزيمة بقبيلتى ثقيف وهوازن فى موقعة حنين ، ونزلت آيات كريمة فقال الله تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم الأَرْضُ بما رَحُبَت ثم ولَّيتم مُدْبرين . ثم أنزل الله سكينَتَه على رَسُوله وعلى المؤمنين وأَنْزَلَ جُنُودًا لم تَرَوْهَا وعذَّب الَّذِين كفروا وذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِين . ثم يتُوبُ اللهُ مِنْ بعْدِ ذلك على مَنْ يَشَاءُ واللهُ غفورٌ رحِيمٌ)[1] .

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام حصار الطائف ، وكانت مدينة منيعة ، ذات موارد اقتصادية وفيرة ، فتتحمل الحصار

---

(١) سورة التوبة الآيات ٢٥ – ٢٧ .

الطويل ، كما كانت ثقيف على دراية بمواجهة أىّ حصار . وانهالت ثقيف على المسلمين بالنبال ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق[١] ، وحاولوا اقتحام الأسوار باستعمال الدبابات[٢] ، ولكن ثقيفاً قذفت على هذه الدبابات قطع الحديد المحمية فأحرقتها .

أقام الرسول على حصار الطائف ، حتى إذا دنا شهر ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ، فكّ الحصار ، على أن يعود إلى حصار الطائف بعد انقضاء الأشهر الحرم . وعاد الرسول إلى مكة ، حيث أدّى العمرة ، ثم رأى العودة إلى المدينة ، فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٨ ﻫ .

ظنت ثقيف ، وقد رأت جيش المسلمين يفك الحصار ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم ، فى وقت دانت مكة بالطاعة للرسول ، فاعتزّت ثقيف بهذا النصر ، ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها فى الطائف فى عزلة عن سائر العرب حولها ، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ،

---

(١) المنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .

(٢) الدبابة : يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه .

ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها[١] .

فطن أحد زعماء ثقيف ، وهو عروة بن مسعود إلى ضلال قومه ، وأنهم قد جانبهم الصواب فى عدائهم للإسلام والمسلمين ، فخرج من فوره ليلحق بركب الرسول ، فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فقال الرسول له : إنهم قاتلوك . فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم .

وعاد عروة إلى الطائف ، فدعا قومه إلى الإسلام ، وكان يظن أنهم يستجيبون له ، لمنزلته فيهم ، ولكنهم رموه بالنبل ، فأصابه سهم ، فسقط مضرجاً فى دمائه . واقترب منه رجل ، يدعى وهب بن جابر ، فقال له : ما ترى فى دمك ؟ فأجاب عروة : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلاّ ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم . وعلم الرسول بما حدث لعروة ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن مثله فى قومه

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٤٥ .

لكمثل صاحب ياسين فى قومه[1] .

لم تكن ثقيف فى حقيقة الأمر تعادى الإسلام أو الرسول ، ولكن كانت هناك دوافع كثيرة تدفعها إلى هذا الموقف العدائى . فقد كانت ثقيف تتعصب لنفسها ، باعتبارها من أكبر القبائل العربية ، وكانت قد وصلت إلى مركز السيادة فى مدينة الطائف التى كانت أكثر مدن الحجاز خصوبة وثراء . وكان الإسلام يدعو إلى تحطيم الحواجز القبلية وإلى نبذ العصبية بين القبائل ، ويؤاخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم . وكانت ثقيف تدافع عن شخصيتها القبلية من جهة ، وعن وثنيتها من جهة أخرى ، فقد كانت ثقيف ، وقريش ، تحملان لواء الوثنية فى الجزيرة العربية . وكان لثقيف وثنها المعروف ، اللات ، وقد أقامت حوله حرماً على مثيل حرم الكعبة ، وكان كثير من القبائل العربية تحج إليه مما يعود على ثقيف بالفوائد المادية الكبيرة .

كما كانت ثقيف على عداء دائم مع قبيلة قريش ، فكانت القبيلتان تتنافسان حول السيادة السياسية والروحية والاقتصادية فى بلاد الحجاز ، حتى إن ثقيفاً شجعت أبرهة الأشرم قائد

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٢ .

الجيش الحبشي ، يوم الفيل ، على المضيّ في زحفه نحو مكة ، وعلى هدم الكعبة . وكانت ثقيف ضيقة الأفق ، ولم تنظر إلى الرسول على أنه رسول الله إلى العالمين ، بل نظرت إليه ، عليه الصلاة والسلام ، على أنه محمد القرشي ، ولذا ظنت أنها إذا اعتنقت الإسلام دانت بالطاعة لعدوّها ومنافستها قريش . ولذا مضت ثقيف في عدائها ، على غير هدى ، للرسول والإسلام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل هجرته إلى المدينة المنورة ، قد فكر في هجرة المسلمين إلى الطائف ، لقربها من مكة ، وارتباطها بها ، حتى إنه كان يطلق على مكة والطائف اسم (المكتين) أو (القريتين) . وخرج الرسول إلى الطائف وحاول عبثاً أن يقنع قبيلة ثقيف باعتناق الإسلام أو السماح للمسلمين بالهجرة إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً أصرّت على ضلالها وعدائها ، بل أساءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

الطائف تنشد الإسلام والسلام :

أدركت ثقيف أنها أصبحت في عزلة قاتلة ، وأدركت أن عهد الوثنية والجهالة قد مضى ، ودالت دولة الأصنام ، وهذه قريش نزعت عنها طغيانها وغطرستها ودخلت في دين الهداية

والحق ، وفطنت ثقيف أن زعيمها عروة بن مسعود كان على حق وبصيرة ، حينما دعاها إلى طاعة الله ورسوله ، وفى ذلك يقول ابن هشام : « ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا »[١] .

أدرك زعماء ثقيف هذه الحقيقة ، وخرج أحد زعمائها ، وهو عمرو بن أمية ، وهو أيضاً من أدهى العرب ، قاصداً لقاء زعيم آخر من زعماء الطائف هو (عبد ياليل بن عمرو) ، رغم ما كان بينهما من جفاء وخصام . ووضّح عمرو له خطورة الموقف فقال : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يقصد الرسول) ما قد رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم !

وتلاقى الثقفيون ، وعقدوا مؤتمراً ، فقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[٢] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع . واتفقت كلمة ثقيف على أن تبعث برجل منها

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٢) سرب : نفس .

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورشّحوا لهذه المهمة (عبد ياليل)، ولكنه امتنع عن قبول المهمة، إذ نخشى أن تقتله ثقيف حينما يعود من المدينة ، كما فعلت بعروة بن مسعود . ثم قال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً . وألفت ثقيف وفداً من ستة نفر ، برئاسة (عبد ياليل) . وكان من أعضاء الوفد رجلان من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، ليمثلوا عناصر السكان فى الطائف ، وحتى يلتزم الجميع بما ينتهى إليه الوفد فى المدينة[1] .

وفد الطائف فى المدينة فى رمضان ٩ هـ :

اقترب وفد الطائف من المدينة ، ونزلوا قناة ، فوجدوا بها المغيرة بن شعبة يرعى ركاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت رعيتها نوباً على هؤلاء الصحابة ، حتى إذا رأى المغيرة وفد الطائف ، ترك الركاب عندهم ، وهرع إلى الرسول يبشره بقدومهم . والتقى المغيرة ، قبل دخوله على الرسول ، بأبى بكر الصديق ، فأخبره المغيرة بقدوم وفد ثقيف وأنهم « يريدون البيعة والإسلام ، بأن يشرط لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شروطاً ، ويكتتبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومهم

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣ .

وبلادهم وأموالهم[١] » .

وأدرك أبو بكر أهمية قدوم وفد الطائف ، إذ هداهم الله تعالى إلى الإسلام ، فجاءوا إلى المدينة طوعاً واختياراً ، فقال المغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أكون أنا أحدّثه .

وخرج المغيرة إلى وفد الطائف ، وصحبهم إلى رسول الله ، وعلّمهم كيف يحيون الرسول عليه الصلاة والسلام بتحية الإسلام. وضرب الرسول لهم قبة فى ناحية مسجده ، وحضر خالد بن سعيد بن العاص اجتماع الرسول بالوفد ، وتولى كتابة الكتاب الذى التمسه الوفد من الرسول .

عرض وفد الطائف على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعتنقوا الإسلام، على أن يعفيهم من الصلاة ويترك لهم طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى الرسول إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، فسألوه أن يترك اللات سنتين ثم سنة ، ثم شهراً، فأبى الرسول ذلك كله . ويعلل ابن هشام[٢] هذا الالتماس بقوله : « وإنما يريدون ذلك فيما يظهرون أن يتسلموا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام » .

وكان الرسول كريماً مع وفد الطائف ، كما هو كريم مع الجميع دائماً، فقال للوفد : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه . واعتنق وفد الطائف الإسلام ، وبايعوا الرسول على الإسلام والطاعة ، وكتب الرسول لهم بذلك كتاباً ، وولى على الطائف أحد أعضاء الوفد ، وهوعثمان بن أبى العاص ، وهو من بنى مالك بالطائف، وكان أحدث أعضاء الوفد سنّاً، فقد كان كما وصفه أبو بكر للرسول « أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن »[1] .

صيام وفد الطائف :

كان قدوم وفد الطائف إلى المدينة — كما ذكرنا — فى شهر رمضان ، فلما اعتنقوا الإسلام على يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدءوا يؤدّون فرائض الإسلام ، فأدّوا الصلاة ، وصاموا رمضان مع المسلمين فى المدينة . وكان الرسول يبعث إليهم بفطورهم وسحورهم مع بلال . وضرب وفد الطائف مثلاً

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ .

رائعاً للتمسك بأركان الإسلام . فقد كان بلال إذا قدم إليهم بطعام السحور امتنعوا عن الأكل وقالوا : إنا لنرى الفجر قد طلع . وقد كان الرسول يؤخر السحور . وإذا قدمَ بلال بطعام الإفطار امتنعوا عن الأكل أيضاً وقالوا : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد . فيطمئنهم بلال ويقول : ما جئتكم حتى أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يضع بلال يده فى الجفنة فيلتقم منها ليحذوا حذوه[1] .

وتأهب وفد الطائف لمغادرة المدينة ، فأوصى الرسول عليه الصلاة والسلام عثمان بن أبى العاص ، فقال له : يا عثمان ، تجاوز عن الصلاة ، واعذر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير ، والضعيف ، وذا الحاجة .

وبعث الرسول مع الوفد أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات . حتى إذا قدموا جميعاً الطائف ، أراد المغيرة أن يقدّم أبا سفيان عليه ، فأبى أبو سفيان ذلك عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك . فقد كان المغيرة من أهالى الطائف . ولما بدأ المغيرة فى هدم اللات وقف قومه من بنى معتّب حوله لحمايته ، حتى لا يكون مصيره كمصير عروة بن مسعود .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٥ .

وانتهى بهدم اللات عهد الوثنية فى الطائف ، ورغم تمسك ثقيف وسائر أهالى الطائف بوثنيتهم من قبل ، إلا أنهم أصبحوا بعد إسلامهم من أكثر المسلمين تمسكاً بالإسلام ، ومن أعظمهم حرصاً عليه ، وذوداً عنه ، حتى إن الطائف تمسكت بالإسلام خلال محنة الردة ، وظهر من أبناء الطائف رجالات بارزون ، أصبحوا من أعلام الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وكان إسلام الطائف آخر مسمار يدق فى نعش الوثنية ، وارتفعت فى الطائف راية أخرى من رايات الإسلام .

صور من حياة الرسول فى رمضان

مولد الحسن بن على فى رمضان ٣ هـ :

فى منتصف شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة ، كان مولد حفيد الرسول ، الحسن بن على بن أبى طالب . واحتفل الرسول ، وابنته فاطمة ، وعلىّ ، والمسلمون جميعاً بمولد الحسن ، الذى كان مولده فى شهر فضيل عظيم ، هو شهر الصوم المبارك[١] .

أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم على حفيده من ابنته فاطمة اسم (حسن) . وقد روى الإمام أحمد بسنده عن على ابن أبى طالب ، قال على : لما وُلد الحسن سميته « حرباً » فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ، ما سميتوه ؟ قلت : حرباً . قال : بل هو « حسن » . فلما وُلد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتوه ؟ قلت : حرباً . قال : بل هو « حسين » . فلما وُلد الثالث سميته « حرباً » فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢١٣ .

أرونى ابنى ما سميتوه ؟ قالت : حرباً . قال : بل هو « محسن » . ثم قال : سميتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر .

عن عمران بن سليمان قال : الحسن والحسين من أسماء أهل الجنة ، لم يكونا فى الجاهلية . وجاء فى الحديث الشريف : « إن الله جعل ذرية كل نبى فى صلبه وجعل ذريتى فى صلب على » . وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن وختنه لسبعة أيام ، والعقيقة ذبيحة تذبح ليطعم منها الفقراء شكراً لله تعالى الذى وهب المولود . وروى جعفر بن محمد أن فاطمة عليها السلام حلقت حسناً يوم سابعه ، ووزنت شعره فتصدقت بوزنه فضة . وأبدت فاطمة فرحها وحبورها لمولد ابنها فأنشدت :

أشبه أباك يا حسن　　　واخلع عن الحق الرسن
واعبد إلهاً ذا منن　　　ولا توال ذا الإحن

جاء فى الترمذى : لم يكن أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن . وقد كناه الرسول بأبى محمد ، كما كان يلقبه بالسيد إذ كان يقول عنه : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

---

(١) الملطاوى : الإمام الحسن بن على ص ٣٠ .

زواج الرسول من أم المساكين فى رمضان ٤ هـ :

شهد شهر رمضان فى السنة الرابعة للهجرة ، زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من زينب بنت خزيمة ، التى اشتهرت باسم « أم المساكين » ، التى قال عنها ابن هشام[١] : « وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ، ورقتها عليهم » .

تنتسب زينب إلى بنى هلال ، فهى بنت خزيمة بن الحارث ابن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال . وكانت زينب قبل زواجها من الرسول عليه الصلاة والسلام زوجة لأحد المسلمين الذين استشهدوا فى إحدى الغزوات . وقد اختلف المؤرخون فى اسم هذا الزوج الشهيد ، فذكر ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) أنه عبد الله بن جحش ، بينما ذكر الطبرى[٢] فى تاريخه أنه الطفيل بن الحارث بن المطلب ، بينما ذكر ابن هشام[٣] أنه عبيدة بن الحارث بن المطلب . كما اختلف المؤرخون فى هذه الغزوة ، هل كانت بدراً أم أحداً .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٦ .
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٦ .

روى ابن هشام[١] أن قبيصة بن عمرو الهلالى هو الذى زوّج الرسول بزينب ، وقد أصدقها الرسول أربعمائة درهم ، وذكر الطبرى[٢] أن الرسول أصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا .

واتفق المؤرخون على أن الزواج قد تمّ فى شهر رمضان سنة ٤ هـ ، ولكنهم اختلفوا فى المدّة التى عاشتها أم المساكين فى بيت الرسول ، فروى ابن العماد فى « شذرات الذهب » أنها ماتت بعد ثلاثة أشهر ، بينما روى ابن حجر روايتين ، تذهب إحداهما إلى أنها ماتت بعد شهرين أو ثلاثة ، بينما تذهب رواية أخرى إلى أنها ماتت بعد ثمانية أشهر . بينما يرى الدكتور هيكل أنها ماتت بعد سنة أو سنتين ، فكانت بعد خديجة ، الوحيدة من أزواج النبى التى توفيت قبله[٣] .

ولكن المؤرخين جميعاً اتفقوا على امتداح زينب بنت خزيمة ، ووصفها بأم المساكين ، وأشادوا بكرمها ورحمتها وعطفها على الفقراء . ويبدو أن حياتها القصيرة جعلت المؤرخين لا يمدوننا بمعلومات كثيرة عن أم المساكين . وتعلق الدكتورة

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٣) حياة محمد ص ٢٨٨ .

عائشة عبد الرحمن[١] على ذلك فتقول : ولو حاولنا أن نسأل كتب السيرة والتراجم مزيداً من أخبار زينب فى بيت الرسول ، لما ظفرنا وراء ذلك بشىء ذى بال ، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج وأمومة المؤمنين ، لم يشغلها غير أمر الفقراء والمساكين . ولم تطل حياتها ، بل مرّت كطيف رقيق عابر ، ثم رقدت فى سلام كما عاشت فى سلام ، وخُلّدت فى تاريخ الإسلام أمًّا للمؤمنين ، وفى تاريخ الإنسانية أمًّا للمساكين .

وفود العرب على الرسول فى رمضان ٩و١٠ هـ :

شهد رمضان أيضاً انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية انتشاراً واسع النطاق ، وشهد أيضاً قدوم وفود العرب من كل مكان على الرسول بالمدينة ، تعلن اعتناقها الإسلام ، وبيعتها للرسول ، وانضمامها إلى الدولة العربية الإسلامية .

وبدأ قدوم هذه الوفود فى رمضان سنة ٩ هـ ، التى أصبح يطلق عليها اسم «سنة الوفود» . وتحدث ابن هشام[٢] عن مقدم

---

(١) نساء النبى ص ١١١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٥ .

وفود العرب فقال : « وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، دخلوا فى دين الله ، كما قال عزّ وجل ، أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه » .

ومن هذه الوفود التى قدمت إلى المدينة فى رمضان وفد ملوك حمير ، يعلنون اعتناقهم الإسلام ، وأكرم الرسول عليه الصلاة والسلام وفادتهم ، وكتب لهم كتاباً يحدد لهم الحقوق والواجبات ، وجاء فى هذا الكتاب : « أما بعد فإنه وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه ، وما كتب

على المؤمنين من الصدقة . . . ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين ، فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله، وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية . . . فمن أدّى ذلك إلى رسول الله فإنّ له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله »[1] .

وشهد رمضان فى سنة ١٠ هـ انتشار الإسلام فى بلاد اليمن . فقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان من هذه السنة على بن أبى طالب فى سرية من المسلمين إلى بلاد اليمن .. وحمل علىّ معه كتاباً للرسول إلى أهالى اليمن ، وخاصة قبيلة همدان . وقد اعتنقت هذه القبيلة الإسلام فى يوم واحد ، وصلّوا جميعاً خلف علىّ . وكتب علىّ كتاباً إلى الرسول ينبئه بإسلام همدان ، فسجد الرسول شكراً لله عز وجلّ وقال : « السلام على همدان » . ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٥ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٨١ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٨٩ .

من أحاديث الرسول حول فضائل رمضان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . يَدَعَ شهوته وطعامه من أجلى . للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وعن أبى هريرة أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام يوماً فى سبيل الله تعالى جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض » . وعن أبى أمامة أنه قال : قلت : يا رسول الله مُرنى بأمر ينفعنى الله تعالى به . فقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة باباً يُقال له الرّيان ، لا يدخله إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فطّر صائماً كان مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً »

وروى أبو هريرة أيضاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب الجنة وغُلّقت أبواب النار وسُلسلت الشياطين » . وعن أنس قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيّ الصوم أفضل بعد رمضان ؟ قال : « شعبان لتعظيم رمضان » . وأى الصدقة أفضل ؟ قال : « فى رمضان »[1] .

روى ابن خزيمة عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان ، قال : « أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه يوم خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعاً ، من تقرّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدّى فريضة فيه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء » .

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ، قال : « كان

(١) ابن الديبع الشيبانى : تيسير الوصول جـ ٢ ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه فى كل ليلة فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر غفر له ما تقدم من ذنبه » . وجاء فى الحديث الذى أخرجه ابن ماجة : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » . وفى الحديث أيضاً « ومن أفطر صائماً فله أجره من غير أن ينقص من الصائم شيئاً » .

روت أم عمارة الأنصارية رضى الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقدمت إليه طعاماً ، فقال : كلى . فقالت : إنى صائمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصائم تصلى عليه الملائكة إذا أكل عنده حتى يفرغوا » . وربما قال حتى يشبعوا .

وروى أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى سعد بن عبادة رضى الله عنه بخبز و زيت فأكل ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

من سنة الرسول في رمضان :

حث الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين على قراءة القرآن الكريم ، وقد كان الرسول أشدّ ما يكون مدارسة للقرآن فى شهر رمضان . روى أبو أمامة رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » . كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» . كما روى عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

وقرن الرسول عليه الصلاة والسلام الصيام بتلاوة القرآن الكريم فقال فيما رواه أحمد والحاكم: « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال : فيشفعان » .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يغدو صائماً مصلياً مسبحاً ، تالياً لكتاب الله عز وجل ، قائلاً في تبتل وخشوع : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا عزيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

وحث الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين على الصيام فى كثير من الأحاديث الشريفة . وكان الرسول يبشر أصحابه بقدوم رمضان ويقول : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك كتب عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر » . كما قال عليه الصلاة والسلام : « لو علمت أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان السنة كلها » . كما قال الرسول أيضاً : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يعوضه صوم الدهر كله » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع » . كما قال

عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله عنها : « داومى قرع باب الجنة » . قالت : بماذا يا رسول الله ؟ قال : « بالجوع » .

ورمضان شهر الروح ، حيث تصفو فيه النفس ، وتشعر بمتعة روحية سامية ، هو الاعتكاف . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان فى المسجد بعيداً عن شواغل المادة وصخب الحياة ، وبذلك سنّ لأمته الاعتكاف .

رسم الرسول صلى الله عليه وسلم آداب الصوم . فعلى المسلم أداء الصلاة ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ». ومن آداب الصوم التخلق بالأخلاق الفاضلة ، وإلاّ كان الصيام غير مقبول ، فقد قال الرسول : « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » ، كما قال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . ومن آداب الصوم السحور ، فقال الرسول : « تسحروا فإن فى السحور بركة » ، وتأخير السحور أفضل من تعجيله ، كما أن تعجيل الإفطار أفضل من تأخيره ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطور وأخروا السحور » . ومن آداب الصوم ،

الإكثار من قراءة القرآن الكريم ، والصلاة على الرسول ، والصدقة ، والاعتكاف فى المساجد . ومن واجب الصائم أن يبيت نية الصيام ، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من لم يبيت الصيام من الليل ، فلا صيام له » .

ومن آداب الصوم التى حث الرسول الكريم عليها الصبر والحكمة ، والبعد عن الغضب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا كان صوم يوم أحدكم ، فلا يرفث ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل إنى صائم ، إنى صائم » . والرفث الفحش فى القول ، والصخب شدة الصوب ، وسابّه يعنى شاتمه .

كان الرسول ينتظر شهر رمضان ليسعد ويحتفل به . وهو الشهر الذى يلقاه جبريل فيه لمدارسة القرآن الكريم وإعادته تلاوة وسماعاً بالتناوب بينهما ، كما كان يجتهد فى العشر الأواخر منه التماساً لليلة القدر ، حتى كان عليه الصلاة والسلام يشدّ مئزره ، ويحيي ليله ، ويوقظ أهله ، ويطوى فراشه . وكان الرسول يدعو الله فى شهرى رجب وشعبان قائلاً : « اللهم بارك لنا فى رجب وشعبان و بلغنا رمضان » . فإذا شاهد هلال رمضان أبدى سروره وحبوره وقال : « هلال رشد وخير آمنت بالذى

خلقك »، ويقول لأصحابه عن قدوم رمضان : « أتاكم رمضان، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر إلى تنافسكم فى الخير ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقى من حرم فيه رحمة الله عز وجل » . ويشيد الرسول بخيرات رمضان فيقول : « لو يعلم الناس ما فى هذا الشهر من الخيرات لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها » .

صام الرسول عليه الصلاة والسلام تسع مرات . ولرمضان أسماء كثيرة اصطلح عليها المسلمون ، منها شهر القرآن ، وشهر النجاة ، وغيرها من الأسماء التى بلغت ستين اسماً . وجمع رمضان : رمضانات ، ورمضانون ، وأرمضة .

من هدى الرسول فى رمضان

الرسول وصيام عاشوراء :

رُوى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه صام فى المدينة بعد الهجرة يوم عاشوراء ، وهو يوم كان اليهود يصومون فيه باعتباره اليوم الذى نجى الله عز وجل فيه موسى وبنى إسرائيل من فرعون . فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود : أنا أحق بموسى منكم . فصامه وأمر المسلمين بصيامه . كما رُوى عن الرسول أنه بعث منادياً فى يوم عاشوراء ينادى المسلمين : « أن من كان أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم عاشوراء »[١] .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن صوم عاشوراء كان واجباً قبل صيام رمضان، بينما يرى الإمام الشافعى أنه سنة مستحبة وليست واجبة .

بحث ابن القيم الجوزية مسألة (صيام عاشوراء)[٢] بحثاً

---

(١) المنتخب من السنة جـ ٥ ص ٢٥٧ (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

(٢) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ (المطبعة المصرية) .

مستفيضاً ، وأثار ثلاثة (استشكالات) ، ثم قام بالرد عليها .

أما هذه الاستشكالات والرد عليها فهى :

١ — أثار ابن قيم الاستشكال الأول فقال : « استشكل بعض الناس ، وقال : إنما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى شهر ربيع الأول ، فكيف يقول ابن عباس أنه قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ؟ »

وقد ردّ ابن القيم على هذا الاستشكال فقال : « أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، فليس فيه أن يوم قدومه وجدهم يصومونه ، فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ثانى عشرة ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة فى اليوم الثانى الذى كان بعد قدومه المدينة ، ولم يكن هو بمكة ، هذا إن كان حساب أهل الكتاب فى صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكرم اليوم الذى نجّى الله فيه موسى وهو يوم عاشوراء من أول المحرم، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس . وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالى ، وكذلك

حجهم ، وكل ما تعتبر له الأشهر من واجب أو مستحب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن أحق بموسى منكم » ، فظهر حكم الأولوية فى تعظيم هذا اليوم ، وفى تعيينه ، وهم أخطأوا تعيينه لدورانه فى السنة الشمسية ، كما أخطأ النصارى فى تعيين صومهم ، بأن جعلوه فى فصل من السنة تختلف فيه الأشهر » .

٢ — أما المشكلة الثانية التى أثارها ابن القيم ، فقد قال عنها : « وفيه إشكال آخر ، وهو أنه قد ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أنها قالت : كانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان عليه الصلاة والسلام يصومه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه ، وأمر بصيامه ، فلما فرض شهر رمضان ، قال : من شاء صامه ومن شاء تركه » .

وردّ ابن القيم أيضاً على هذا (الإشكال) ، فقال : « أما الإشكال الثانى ، وهو أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه ، فلا ريب أن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه ، ولكن إنما كانوا يعدون بالأهلة ، فكان عندهم عاشر المحرم . فلما قدم — أى الرسول — المدينة ،

وجدهم يعظمون هذا اليوم » .

أما الإشكال الثالث الذى أثاره ابن القيم ، فقد عرضه فى قوله : « وإشكال آخر ، وهو ما ثبت فى الصحيحين أن الأشعث بن قيس دخل على عبد الله بن مسعود وهو يتغدى فقال : يا أبا محمد ادن إلى الغداء . فقال : أوَ ليس اليوم يوم عاشوراء ؟ فقال : وهل تدرى ما يوم عاشوراء ؟ قال : وما هو؟ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه قبل أن ينزل صوم رمضان ، فلما نزل رمضان تركه ، وقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، فقالوا : يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان الصيام المقبل إن شاء الله صُمنا اليوم التاسع . فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا فيه أن صومه والأمر بصيامه قبل وفاته بعام ، وحديثه المتقدم فيه أن ذلك كان عند مقدمه المدينة . ثم إن ابن مسعود أخبر أن يوم عاشوراء تُرك برمضان ، وهذا يخالفه حديث ابن عباس المذكور ، ولا يمكن أن يقال تُرك فرضه لأنه لم يفرض . ثبت فى الصحيحين عن معاوية ابن أبى سفيان :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه ، وأنا صائم ، فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر . ومعاوية إنما سمع هذا بعد الفتح قطعاً » .

وردّ ابن القيم أيضاً على هذا الإشكال الثالث فقال :

« أما الإشكال الثالث وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم عاشوراء قبل أن ينزل فرض رمضان ، فلما نزل فرض رمضان تركه ، فهذا لا يمكن التخلّص منه إلا بأن صيامه كان فرضاً قبل رمضان ، وحينئذ فيكون المتروك وجوب صومه لا استحبابه ويتعين هذا ولابدّ لأنه عليه السلام صام قبل وفاته بعام . وقد قيل له إن اليهود يصومونه ، فقال : لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع ، أي معه . وقال : خالفوا اليهود وصوموا يوماً قبله ويوماً بعده ، أي معه . ولا ريب أن هذا كان في آخر الأمر . وأما في أول الأمر ، فكان يجب موافقة أهل الكتاب بينما لم يؤمر فيه بشيء ، فعلم أن استحبابه لم يترك ويلزم من قال إن صومه لم يكن واجباً أحد الأمرين . إما أن يقول بترك استحبابه ولم يبق مستحباً ، أو يقول هذا ما قاله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه برأيه ، وخفى عليه إستحباب صومه ، وهذا بعيد ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حثهم على

صيامه ، وأخبر أن صومه يكفر السنة الماضية ، واستمر الصحابة على صيامه إلى حين وفاته . ولم يُرو عنه حرف واحد بالنهى وكراهية صومه فعلم أن الذى ترك وجوبه لا استحبابه . فإن قيل إن حديث معاوية المتفق على صحته صريح فى عدم فرضيته ، وإنه لم يفرض قط ، فالجواب أن حديث معاوية صريح فى نفى استمرار وجوبه وأنه الآن غير واجب ، ولا ينفى وجوباً متقدماً منسوخاً » .

أما الإمام الطبرى فينفى فرض صيام غير صيام رمضان « فمن ادعى أن صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذى هم مجمعون على وجوب فرض صومه ، ثم نسخ ذلك ، سئل البرهان على ذلك من خبر تقوم به حجة ، إذ كان لا يعلم ذلك إلا بخبر يقطع العذر» .

الرسول وهلال رمضان :

قال الله سبحانه وتعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، ومعنى شهود الشهر الحضور فيه دون سفر أو مرض أو غيرهما مما يسقط الفرضيّة . فالمريض والمسافر ونحوهما شاهدون للشهر ، وليس عليهم صيام رمضان ، فالعبرة إذن فى شهود الشهر بتحقق

القدرة على الصيام ، فإذا انتفت لعذر مؤقت أو دائم كان حضور الشهر كعدمه فى وجوب صيامه[١]

ويبدأ شهود الشهر بالتأكد من دخوله ، إما برؤية الهلال ليلة الثلاثين من شعبان ، أو بإكمال شعبان ثلاثين يوماً إذا تعذرت رؤية الهلال ليلة الثلاثين . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين يوماً » . وكان الرسول يأمر الناس بالصوم إذا شهد برؤية الهلال رجل واحد مسلم[٢] .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا رأى الهلال قال : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله تعالى » . وكان عليه الصلاة والسلام إذا نظر إلى الهلال قال : « اللهم اجعله هلال يُمن ورشد ، وآمنت بالله الذى خلقك فعدلك ، فتبارك الله أحسن الخالقين »[٣] .

عن بشير مولى معاوية ، قال :[سمعت عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحدهم حدير أبو فروة ،

---

(١) محمد الدسوقى : الصيام فى القرآن ص ٤٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ .

(٣) ابن السنى : عمل اليوم والليلة ص ٢٠٧ .

يقولون : إذا رأوا الهلال : اللهم اجعل شهرنا الماضى شهر خير وعافية ، وأدخل علينا شهرنا هذا بالسلامة والإسلام والأمن والإيمان والمعافاة والرزق الحسن .

توجه معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال فقالا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ، ثم يزيد حتى يستوى ، ثم ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ وأجاب القرآن الكريم على هذا السؤال فى قوله تعالى : (مواقيت للناس والحج) كما قال الله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) .

الرسول فى إفطاره وسحوره :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلى ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فإن لم يجدها فعلى تمرات ، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء . ويُذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عند فطره : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

تحدث ابن القيم[1] عن فطر الرسول على التمر أو الماء

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ .

فقال : « وكان — عليه الصلاة والسلام — يحض على الفطر بالتمر ، فإن لم يجد فعلى الماء هذا من كمال شفقته على أمته ونصحهم ، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلوّ المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به ، ولا سيما القوة الباصرة ، فإنها تقوى به وحلاوة المدينة التمر ومرباهم عليه ، وهو عندهم قوت وأدم ورطبه فاكهة . وأما الماء ، فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يبس فإذا رطبت بالماء ثم يأكل بعده هذا مع ما فى التمر والماء من الخاصية التى لها تأثير فى صلاح القلب لا يعلمها إلا أطباء القلوب » .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أفطر قال : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجران ، شاء الله عز وجل » . وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رُفعت مائدته قال : « الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليضع طعامه فما يرفع حتى يغفر له » . قالوا : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : « يقول بسم الله إذا وضع طعامه ، وإذا رفع قال الحمد لله كثيراً » .

وعن أنس بن مالك أيضاً ، رضى الله عنه ، أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أفطر عند قوم دعا لهم ، فقال : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة »[١] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » . وعن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند أذان المغرب : « اللهم هذه أصوات دعاتك وإقبال ليلك وإدبار نهارك فاغفر لى»[٢] . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « إذا دُعى أحدكم فليجب ، فإن كان مفطراً فليأكل ، وإن كان صائماً دعا له بالبركة »[٣] .

تحدث ابن القيم[٤] عن إفطار الرسول وسحوره ، فقال : « وكان — عليه الصلاة والسلام — يعجل الفطر ويحض عليه ،

---

(١) ابن السنى : عمل اليوم والليلة ص ١٥٣ — ١٥٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥٦ .
(٤) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ — ١٦١ .

ويتسحر ويحث على السحور ويؤخره ويرغّب فى تأخيره » . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام « ينهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب وجواب السباب ، فأمره أن يقول لمن سابه : إنى صائم » .

رُوى عن ابن عباس أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبالقيلولة على قيام الليل » . كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « السحور كله بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء ، فإن الله عز وجل وملائكته يصلون على المتسحرين » .

تعبد الرسول فى رمضان :

من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام فى شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات ، فكان « يخص رمضان من العبادة » ، ويكثر « من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف »[1] .

وكان الاعتكاف من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان . والاعتكاف عبادة قديمة قال المولى عز وجل عنها :

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٥٤ .

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) .

اعتاد الرسول الاعتكاف فى شهر رمضان وخاصة فى العشر الأواخر منه ، فعن عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، لالتماس ليلة القدر ، ولإحياء الأيام الأخيرة من هذا الشهر الفضيل . عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئذر»[1] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، وتركه مرة فقضاه فى شوال . واعتكف مرة فى العشر الأول ، ثم فى الليالى العشر الوسطى ، ثم العشر الأخيرة ، يلتمس ليلة القدر. ثم تبين للرسول أنها فى الليالى العشر الأخيرة ، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

تحدث ابن القيم[2] عن اعتكاف الرسول فى رمضان :

---

(١) شد المئذر : كناية عن شدة جده واجتهاده فى العبادة ، أو عن اجتناب النساء .

(٢) زاد المعاد جـ ١ ص ١٧١ .

فقال : « وكان يأمر بخباء فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربه عز وجل . وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله فأمر به مرّة فضرب . فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت . فلما صلى الفجر ، فرأى تلك الأخبية فأمر بخبائه فقوّض ، وترك الاعتكاف فى شهر رمضان ، حتى اعتكف فى العشر الأول من شوال . وكان — عليه الصلاة والسلام — يعتكف كل سنة عشرة أيام ، فلما كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً ، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرّة ، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف دخل قبته وحده ، وكان لا يدخل بيته فى حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان . « وكان إذا اعتكف طرح له فراشه ، ووُضع له سريره فى معتكفه ، وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض وهو على طريقه فلا يعرج له ولا يسأل عنه . واعتكف مرّة فى قبة تركية ، وجعل على سدّتها حصيراً . كان هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه ، عكس ما يفعله الجهّال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة ومجلبة للزائرين وأخذهم بأطراف الحديث بينهم .

فهذا لون ، والاعتكاف النبوى لون »[١] .

والاعتكاف يرتبط بالصوم ، فلم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اعتكف مفطراً قط ، بل قالت السيدة عائشة : لا اعتكاف إلا بصوم ، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى الاعتكاف إلا مع الصوم ، ولا فعله رسول الله إلا مع الصوم[٢] .

مع الرسول فى صيامه :

لم يستكمل الرسول صلى الله عليه وسلم صيام شهر من الشهور غير رمضان ، ولم يكن يصوم فى شهر أكثر مما يصوم فى شعبان ، وكان يصوم عدّة أيام من كل شهر . ولكن الرسول لم يصم الثلاثة الأشهر (رجب وشعبان ورمضان) كما يفعل بعض الناس ، ولم يصم شهر رجب كله ولم يستحب صيامه ، بل رُوى عنه النهى عن صيامه . وكان الرسول يتحرّى صيام يومى الاثنين والخميس . ولكنه كان يكره صوم يومى الجمعة والسبت ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن يوم الجمعة يوم عيد ، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

بعده » . كما قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم » . وقد نهى الرسول عن إفراد يوم السبت لأن اليهود كانوا يعظمونه ، وقد نهى الرسول المسلمين عن التشبه باليهود .

عن ابن مسعود أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام[١] .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستاك وهو صائم . وذكر الإمام أحمد أنه كان يصب الماء على رأسه وهو صائم ، كما كان يتمضمض ويستنشق ولكنه منع الصائم من المبالغة فى الاستنشاق . كما كان الرسول يكتحل وهو صائم ، ولكن لم يصح عنه أنه احتجم[٢]

سافر الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان فصام وأفطر ، وخير الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على القتال .

قال الرسول للصحابة حينما دنوا من عدوهم : « إنكم قد دنوتم من عدوكم فأفطروا أقوى لكم » وفى يوم فتح مكة قال لصحابته : « إنه يوم قتال فأفطروا » . وعن عمر بن الخطاب

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٣ .

أنه قال : « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان غزوتين ، يوم بدر والفتح ، فأفطرنا فيهما »[١]

حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على صلاة التراويح ، أى صلاة القيام ، وهى صلاة تؤدى فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهى سنّة مؤكدة للرجال والنساء ، يؤدونها بعد صلاة العشاء . روى عبد الرحمن بن عوف أن الرسول قال : « إن الله عزّ وجل فرض صيام رمضان ، وسننت قيامه ، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وصلاة الجماعة فى التراويح (أى القيام) سنة عن النبى ومستحبة ، ولكنها ليست واجبة . فقد صلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالمسلمين فى المسجد صلاةالقيام (التراويح) فى الليلة الأولى من رمضان ، ثم فى الليلة الثانية ، وتكاثر المسلمون واجتمعوا فى الليلة الثالثة أو الرابعة ، فلم يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما كان الصباح قال لهم : « رأيت الذى صنعتم ، فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم وذلك فى رمضان » .

اختلف فى عدد ركعات صلاة القيام (التراويح) . فقالت

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦١ .

السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة . وذكر عمر ابن الخطاب أن عدد الركعات عشرون والوتر ، بينما ذكر جابر أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى بهم ثمانى ركعات والوتر .

وفى نهاية شهر رمضان المعظم ، وبعد أن يشهد شاهدان برؤية هلال شوال ، يبدأ احتفال الرسول عليه الصلاة والسلام بعيد الفطر ، فيأمر المسلمين بالفطر ، ويصلى بهم العيد .

قال ابن عباس : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أدّاها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أدّاها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات .

وقال ابن عمر : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام منادياً فى فجاج مكة ينادى : ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ، ذكر أو أنثى ، حرّ أو عبد ، صغير أو كبير ، مدّان من القمح أو سواه صاعاً من طعام[1] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد جـ ١ ص ١٥١ .

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم

عذراء

فايد العمروسي